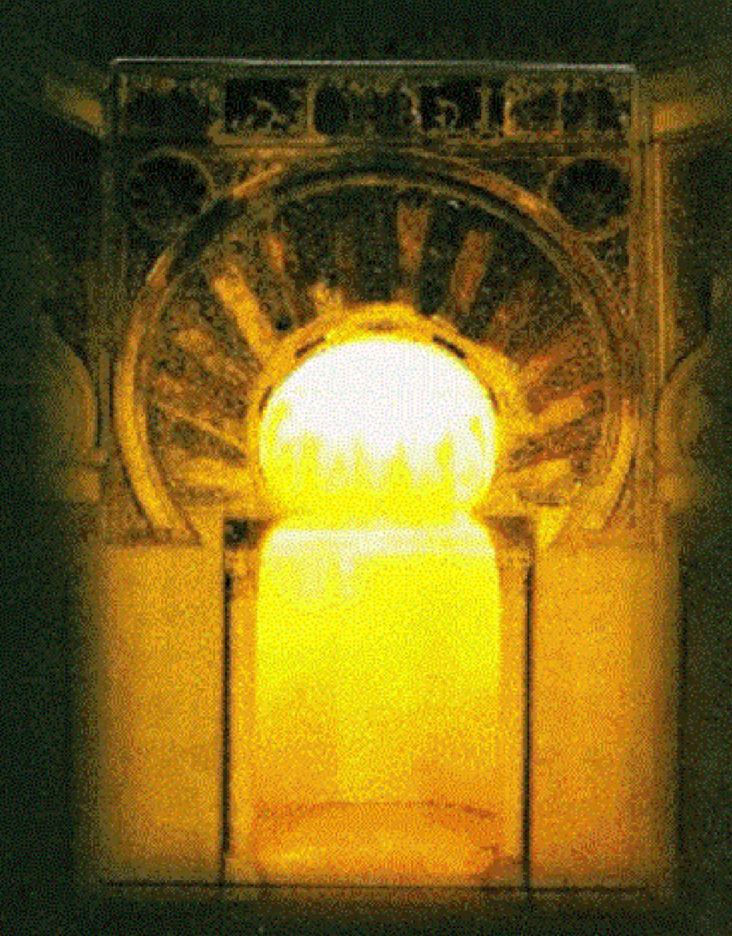
المناظر الإلهية

ويليه

شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي



كلاهما تأليف

الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي

المتوفى ٨٣٢ هجري

اعتنى بهما

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



ويليه

شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي

كلاهما تأليف

الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي

المتوفى ٨٣٢ هـ

اعتنى بهما

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية

هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٩٦١ ٥+)

صندوق بريد: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Etage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4591-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الأول قبل كل أول بلا أولية والآخر بعد كل آخر بلا آخرية والظاهر في كل ظاهر بلا مظهرية والباطن في كل باطن بلا مبطونية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سر الذات الأحدية، ومجلى الأسماء والصفات الواحدية، قرآن الجبروت وفرقان الملك والملكوت، برزخ الحقائق الحقية والمرايا الخلقية، المبعوث رحمة للعالمين بأسرار وأنوار أحوال ومقامات الدين الكامل: الإسلام والإيمان والأحسان.

وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس رؤية سراب الأغيار، المتحققين بقوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وعلى أصحابه المقربين المتزينين بأنوار أسرار حبيبهم المختار المتجلية بالأنفس والآفاق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبعد فنقدم للقراء الكرام كتابين مهمين في الحقائق الإلهية ضمن مجموعة كتب التصوف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها ونشرها بأبهى حلة خدمة لمقام الإحسان مقام: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الذي هو الركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وهذان الكتابان هما «المناظر الإلهية» و«شرح مشكلات الفتوحات المكية» وكلاهما للعارف بالله تعالى الشيخ عبد الكريم الجيلي رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه وأسراره.

ومما لا شك فيه أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ الملك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا لله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

كتبه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيّالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة المؤلّف
الشيخ عبد الكريم الجيلي

هو قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي نسبة إلى قرية جيل التابعة لبلاد إقليم «طبرستان»، وقال بطرس البستاني في دائرة المعارف: «جيلان أو كيلان تقع في الجزء الشمالي الغربي من بلاد فارس (٦/ ٦١٥).

وهو سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني لذلك أُضاف إلى اسمه لقب القادري. وهو من مُتابِعِي الطريقة القادرية.

وكان الجيلي متضلّعاً بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة إلا أنه اشتهر بالكتابة في علم الحقيقة أي العلم المتعلّق بالركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل الذي ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: الإسلام، والثاني: الإيمان، والثالث: الإحسان.

تتلمذ الشيخ الجيلي على شيخه الشيخ إسماعيل الجبرتي.

وكانت ولادته سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وتوفي سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م[١].

---

(١) للتوسّع في ترجمته يُرجَع للمصادر التالية:
١ ـ بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) النسخة العربية ٧/٢٤٨.
٢ ـ الجيلي (المناظر الإلهية) ١١ ـ ٤١.
٣ ـ البغدادي (هدية العارفين) ١/ ٦١٠.
٤ ـ الزركلي (الأعلام) ٤/ ١٧٥.
٥ ـ كحالة (معجم المؤلّفين) ٥/ ٨٣١٣
٦ ـ محمد عيسى صالحية (المعجم الشامل للتراث المطبوع) ٢/ ١١٤.
٧ ـ L'homme parfait chez Al-Jili Par dr. Assem Al-kayali, Dar Al-kotob Al-Ilmiyah, beirtouth- Liban.

مؤلفاتـــه

ترك «الشيخ عبد الكريم الجيلي» عدداً من المؤلّفات الهامة كلها في علم الحقائق الإلٰهية. وهذه المؤلّفات لم يُنشر منها إلا القليل فضلاً عن أن هناك عدداً منها لم يُعرَف عنها شيئاً سوى ما ذكره الجيلي نفسه في بعض مؤلّفاته. وهذه المؤلّفات هي التالية:

١ ـ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. وهو من أهم كتبه وأشهرها، وهو مطبوع عدة طبعات.

٢ ـ الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمٰن الرحيم. مطبوع بتحقيقنا بالدار.

٣ ـ المناظر الإلٰهية وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

٤ ـ الإسفار عن نتائج الأسفار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار. مطبوع بتحقيقنا بالدار.

٥ ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية. وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

٦ ـ الكمالات الإلٰهية في الصفات الحمدية. مطبوع بتحقيقنا بالدار.

٧ ـ شرح أسرار الخلوة لابن عربي. مطبوع بتحقيقنا بالدار.

٨ ـ القصيدة العينية. مطبوع.

٩ ـ قصيدة الدّرّة الوحيدة في اللجّة السعيدة.

١٠ ـ حقيقة اليقين وزلفة التمكين.

١١ ـ قطب العجائب وفلك الغرائب.

١٢ ـ المملكة الربّانية المُودَعَة في النشأة الإنسانية.

١٣ ـ الخِضَمّ الزاخر والكنز الفاخر في تفسير القرآن.

١٤ ـ جنة المعارف وغاية المريد والعارف بالفارسية.

١٥ ـ المرقوم في سرّ التوحيد المحمود والمعلوم.

١٦ ـ حقيقة الحقائق التي هي من وجه للحق ومن وجه للخلائق.

١٧ ـ غنية أرباب السّماع.

١٨ ـ مراتب الوجود. مطبوع بتحقيقنا بالدار.

١٩ ـ الغايات في معرفة معاني الآيات والأحاديث المتشابهات. وهو تعريف بالذات الإلٰهية.

٢٠ ـ بداية مبحث في معرفة الله.

٢١ ـ الناموس الأعظم والقاموس الأقدم. وهذا الكتاب عبارة عن أربعين جزءاً وهو متناثر في المكتبات وغير كامل حتى الآن.

٢٢ ـ سرّ النور المتمكّن.

٢٣ ـ زُلفة التمكين.

٢٤ ـ لوامع البرق الموهن.

٢٥ ـ السفر القريب نتيجة السفر الغريب.

٢٦ ـ رسالة أربعين في أحوال الصوفية. طبع أدنبرغ.

٢٧ ـ لسان القدر بكتاب نسيم السحر. مطبوع.

٢٨ ـ عقيدة الأكابر المقتبسة من أحزاب وصلوات. مطبوع.

٢٩ ـ روضة الواعظين.

٣٠ ـ قاب قوسين وملتقى الناموسين.

٣١ ـ كشف الغايات شرح كتاب التجليات. مطبوع.

٣٢ ـ منازل المنازل في معنى التقرّبات بالفوائت النوافل.

٣٣ ـ عيون الحقائق في كل ما يحصل من علم لطرائق.

٣٤ ـ نسيم السحر سبب الأسباب والكنز لمن أيقن واستجاب. مطبوع بتحقيقنا بالدار.



اعتنى بهما

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

المقدمة

أردتُ ـ بإذن الله ـ أن أمنح عبادَ الله شرباً مِنْ عُبابِ المعارف . .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد، وآله، وصحبه، وسلم

الحمد لله، ذي المناظر العلية، والمحاضر السنية، والمشاهد القيومية، والمحامد الديمومية. الأحد، في أحدية ذاته. الواحد، في واحدية أسمائه وصفاته. الكبير، الذي جلّ عن المحل، فلا يوصف بالمكان. القديم، الذي تنزّه عن الحدوث، فلا يلحقه الزمان. الظاهر، المتجلي في لباس المظاهر، بما شاء من تجليات الجمال. الباطن، الذي خفي إدراكه عن بصيرة كل باصر، فلا يوصف بغير مطلق الكمال. لاحت على وجوه الموجودات محاسن أنواره، فعبدت بالضرورة، لما فيها من آثاره.

أحمده حمد من حمده، بمطلق تجليات مقتضيات شؤونه، في كل يوم. فأدى من حقوق العبودية كل حق، يجل عن مظان الدوم. وأشهد أن لا إله إلا الله، بتحقيق شهود أن لا موجود حقيقة سواه. وأشهد أن سيدنا محمداً محل نظره، من العالم المخصوص، بمجامع محامده، الموجودة في بني آدم. صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن المناظر الإلهية، محاضر إجمال العلوم اللدنية، وأن تفصيلها لا يكون إلا عن موهبة ثابتة إلهية. فقد يدرك تلك الموهبة العبد: في نفس المنظر العلي: إيحاءً إلٰهياً. أو بحقيقة اتصاف من الصفة العلمية، فيوفي المقام ما يستحقه من آداب الحال والمقال. وقد يتأخر عليه تفصيل تلك العلوم إلى بعد نزوله عن تلك المناظر، فيفهم ما كان فيها إلهاماً إلٰهياً، أو بإعلام شيخ مرب، مكاشف بالمناظر الإلهية، فيوفي الوقت الذي هو فيه أدبه. ولكن فاته أدب تلك المناظر، لفواتها. لأن التجلي الواحد لا يبقى زمانين، بل لله تعالى في كل زمان تجلٍّ مخصوص، من سر قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

ومن الناس من يجذب إلى بعض المناظر الإلهية، فيخرج منها، وهو لا يدري: أين كان؟ ولو سمع بأوصاف المناظر التي كان هو فيها: تعجب، وأنكر ما كان عليه. وذلك لضعف علمه، وقصور فهمه، فإن الدهش لا يطرأ إلا على الضعفاء.

واعلم: أن لكل منظر آفة، تمنع الداخل فيها عما فوقها، وتمسكه عندها، ما لم يعلم تلك الآفة. فإذا اطلع عليها ترقى عن ذلك المنظر إلى غيره. وهذه الآفة ملحقة بالعبد، كما أن المناظر ملحقة بالله تعالى.

وها أنا أذكر لك: مائة منظر ومنظراً علياً، وأشرح ما أمكن من حال كل منظر. ثم أذكر آخره: آفة حال العبد في ذلك المنظر، ليتبصر بذلك من وفقه الله تعالى، فيقيس بهذه المناظر ما فوقها، وما دونها. والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

فصـــل

أردنا أن نضع، في هذا الموضع، أصولاً، تصون الناظر في هذا الكتاب، عن الزيغ والزلل، وتمنعه عن الخطأ والخطل، فإنه ما كل أحد من الطالبين، تكون عنده القواعد من أصول الدين. فقلنا لك، أيها الأخ! اعلم، وفقك لله تعالى: أن الحقائق، هي أصول الشرائع، وأن الشرائع، هي أصول المطالب لمعرفة الحقائق. فلا بد لمن يقصد معرفة علمنا هذا، إما تعلماً كسبياً، أو بطلبه من طريق الإلهام، بشروطه: أن يقيس العلوم الواردة إليه، على الأصول المشروعة، التي قد ثبتت بالكتاب والسنة والجماعة. فما وجده من تلك العلوم موافقاً للشريعة، اعتقده، وتحلى به. وما وجده مخالفاً توقف عن استعماله، إلى أن يفتح الله تعالى بما يؤيده من الشريعة، فيستعمله حينئذ.

ومن ثم قال الإمام الأكبر[1]: كل حقيقة لا تؤيدها شريعة، فهي زندقة. يريد: أن كل علم يرد عليك من الحقائق التي لا تؤيدها الشرائع، فاستعمال ذلك العلم زندقة منك. لأنك تفعل خلاف الشرائع. لا أن الحقائق فيها زندقة، إذ ليس في الحقائق مسألة إلا وقد أيدها الكتاب والسنة. فينبغي أن نجعل لك أصولاً أربعة:

الأصل الأول

تعتقد: أن الله تعالى قديم، واحد، لا شبيه له، ولا مثل له، ولا شريك له، غير ملحق بالإمكان. ولا مسبوق بالعدم. ليس بجسم، ولا روح، ولا معنى، ولا صورة. هو شيء لا كالأشياء. لا يحل شيئاً ولا يحله شيء، ولا يمازج شيئاً، ولا يمازجه شيء. منزّه عن الجهة، والحد، والحصر. أزلي، أبدي.

الأصل الثاني

تعتقد: أن محمداً ﷺ، أفضل المقربين، وأكمل رسل رب العالمين. جاء بالحق المبين، ونطق بالصدق اليقين. لم يترك مكرمة، إلا وقد نبّه عليها بأنواع التنبيهات. ولم يدع قربة، إلا وقد دعا إليها بأنواع الدلالات. خاتم المرسلين، وتاج المقربين، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، أجمعين.

---

(١) يقصد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي. وفي نسخة [الأكمل] بدل [الأكبر].

الأصل الثالث

تعتقد: صحة ما جاء به محمد ﷺ، من كتاب الله: فتؤمن بالبعث، والنشور، والقيامة، والحساب، إلى غير ذلك مما أخبر به، من الوعد والوعيد، والآيات الظاهرة، عند انصرام أحكام هذه الدار.

الأصل الرابع

ينبغي لك أن تجعل طلبك لهذا العلم، خالصاً لمعرفة الله تعالى، خالصاً لوجهه. وتجعل طلبك لمعرفته، لكونه أهلاً لأن يعرف. فلا تطلب معرفته، لكي تصل إليه، أو تعرفه. فينبغي لك تزكية النفس، والعمل في تطهيرها، إلى أن يمكنك الله تعالى منها.

وقد آن أوان الشروع في الكتاب، والله الموفق للصواب. وهذه فهرسة المناظر:

٣٣ ـ منظر الإجمال.

٣٤ ـ منظر التفصيل.

٣٥ ـ منظر الإطلاق.

٣٦ ـ منظر التقييد.

٣٧ ـ منظر الوصال.

٣٨ ـ منظر الفصال.

٣٩ ـ منظر التجريد.

٤٠ ـ منظر التفريد.

٤١ ـ منظر خلع العذار.

٤٢ ـ منظر ستر الحال.

٤٣ ـ منظر التلامت.

٤٤ ـ منظر التصوف.

٤٥ ـ منظر التزندق.

٤٦ ـ منظر الوقوف مع المراسم.

٤٧ ـ منظر الكفر.

٤٨ ـ منظر الإيمان.

٤٩ ـ منظر الإحسان.

٥٠ ـ منظر الشهادة.

٥١ ـ منظر تعبد.

٥٢ ـ منظر القربة.

٥٣ ـ منظر العبودية.

٥٤ ـ منظر الهداية.

٥٥ ـ منظر البداية.

٥٦ ـ منظر النهاية.

٥٧ ـ منظر الغاية.

٥٨ ـ منظر الجمال.

٥٩ ـ منظر الجلال.

٦٠ ـ منظر الكمال.

٦١ ـ منظر الاستواء.

٦٢ ـ منظر الاستيلاء.

٦٣ ـ منظر اللذة السارية.

٦٤ ـ منظر الكشف والعيان.

٦٥ ـ منظر الستر.

٦٦ ـ منظر المراتب.

٦٧ ـ منظر الحضاير.

٦٨ ـ منظر الخلع والمواهب.

٦٩ ـ منظر الأسرار.

٧٠ ـ منظر الطرق المختلفة.

٧١ ـ منظر الصراط المستقيم.

٧٢ ـ منظر العناية.

٧٣ ـ منظر المملكة.

٧٤ ـ منظر الحرف.

٧٥ ـ منظر الكلام.

٧٦ ـ منظر الصورة.

٧٧ ـ منظر المعنى.

٧٨ ـ منظر المعارف.

٧٩ ـ منظر السكر.

٨٠ ـ منظر المعية.

٨١ ـ منظر العندية، بالنون.

٨٢ ـ منظر أستغفر الله ـ ١.

وهذا ما انتهى إليه فهرسة المناظر اعلم: أنا لم نرتب جميعه، على ترتيب ما يحصل في المنازلات، عند الفتح، لأهل الله تعالى، بل رتبناه على حسب ما أمرنا به، في وضع هذا الكتاب: فبعضه على ترتيب المنازلة، وبعضه على غير ذلك، ترتيباً إلهياً، ليس لنا فيه اعتراض، ولا شائبة، فعل الله.

والله المسؤول أن ينفع به قارئه، ويمن بفضله على حامله، فهو حسبي، ونعم الرب ربي، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله، وصحبه وسلم.

منظر (اعبد الله كأنك تراه)

وهو باب المناظر كلها، فيها تهب نفحات الرحمٰن على المتعرضين لها بقوابلهم، فيؤخذ العبد من استعماله، في ظاهر أعماله، بأركان العبادات، إلى هذا المنظر العلي، والمشهد السني، فتتصور له حضرة الحق تعالى، بكبريائه وعظمته. فلا يأتي عملاً إلا وهو مأخوذ عن ذلك العمل، لغلبة حال الدهش على قلبه. ويكون سائر أحواله، وأفعاله، وأقواله كلها عبادات. لأنه مأخوذ عنها إلى تصور الحضرة الإلهية، فهو مشاهد لذلك التصور بحقيقته، في سائر أموره.

وفي هذا المنظر يفتح عليه: بعلوم الاصطلام، ويكشف له عن أسرار الحق تعالى في ظواهر المخلوقات:

- فيقرأ رقوم كتابة أسماء الله، تعالى، على صفحات وجوه المخلوقات.

- ويعلم السر الذي أخذ بالعالم إلى ما أخذهم، فيما هم عليه، فلا يرى قبيحاً في الوجود بأسره.

آفة هذا المنظر:

هو ذلك التصور، لأنه تعمل، ولو كان ضرورياً، فإنه لا على الكشف، بل هو على الحجاب ولأجل ذلك يتحقق هو في نفسه، أنه مشاهد لما يشاهده بإيمانه، لا بقلبه، فليس فيه من الشهود إلا وهو اليقين بعلم ما آمن به، وهو حجاب. ومنه ينتقل إلى المراقبة.

* * *

منظر (المراقبة)

هو شهود العبد، بقلبه، لحضرة الحق تعالى، فتظهر له، حينئذ، حقارة نفسه، وعجزها، وصغرها، وذلها، تحت بروز عظمة الحق تعالى، وقوته، وكبريائه، وعزته. فيأخذه الصعق في هذا المشهد، فإذا رجع عنه إلى نفسه، وجد عنده من العلوم: معرفة قدر الله تعالى، على قدر قوة ما له من القابلية. فتكون عنده من العلوم: معرفة عجز المخلوقين، وحقارتهم، ويفتح عليه من هذه المعاني بأنواع العلوم الذوقية.

وهذا المنظر تفصيل المنظر الذي قبله: فإن المشاهد في ذلك المشهد الأول، لا يقع عنده من حضرة الحق إلا الإجمال. وفي هذا المشهد، يقع عنده تفصيل ذلك. فمثل صاحب هذا المنظر المتقدم، مثل من علم أن ملك الروم موجود، وأنه في حضرته، فيتصور ذلك الأمر إجمالاً.

ومثل صاحب هذا المشهد، مثل من يطلع على حال الملك، بين عساكره، وحشمه، فيتصور عنده من ضروريات هيبة الملك، ما يتصور، على قدر قوة القابلية.

آفة هذا المنظر:

هو ذهوله عن المتجلي في المنظر، بحال المنظر. فيشتغل بالمقام، عن صاحب المقام. وما ذاك إلا لأنه لا يرى إلا المقام، والحضرة، لا صاحب الحضرة. وسر ذلك: كون هذا المنظر، أثر عكس المنظر الإلهي، لا لنفسه. فإن الحضرة الإلهية يسطع نورها على سر العبد، فيقع خيال ذلك، وعكسه، في قلبه، فلا يشاهد إلا الخيال، والعكس، لا نفس الصورة.

ومن هذا المنظر، ينتقل إلى ما بعده: وهو (منظر التجلي على إطلاق). ولا يصح له من هذا المنظر إلا رائحة مما فوقه. وكل المناظر بهذه المثابة: لا تصح إلا بلمعات مما فوقها.

* * *

منظر (التجلي على الإطلاق)

إذا استقام قلب العبد، في حضرة الإيمان، بتصور ما لله تعالى، يطفح على قلبه، من قلبه نور شعشعاني، فيتجلى عليه، من باطن ذلك، معنى إلهي، فيقع عنده، بالضرورة، أنه نور تجلٍّ إلهي، فيذهب حينئذ عن محسوساته، إلى ذلك النور، ويؤخذ فيه عن سائر معلوماته. وقد تتواتر عليه سطعات الأنوار، فيشاهدها بعين رأسه، لاتحاد البصر بالبصيرة. كما تتشكل الأمور الخيالية، أحياناً، في الحس، فيشاهدها الناظر ببصره.

وفي هذا المنظر تكون البواده، واللوامع، والبوادي، والسواطع، واللوامح، في أول الأمر. فإذا تواترت عليه، وأعقب المثل مثلاً، فقد استقام قلبه في هذا المشهد.

وفي هذا المشهد يفتح عليه من العلوم والواردات: علم توحيد الحق تعالى، وتلاشي العالم. ويكون لديه من المعارف علم توحيد الظاهر في المظاهر.

آفة هذا المنظر:

هو شهود نفس تلك الأنوار، فإن الحق تعالى منزّه عن ذلك. وإنما هي أنوار إيمانية بالله تعالى، تتجلى عليه فيرتق عليه الأمر، فيظنها أنوار لله تعالى، وهي نور الإيمان، على أنه في الحقيقة كل الأنوار، بل كل شيء. هو نور الله تعالى، ولكنه بواسطة شيئية ذلك الشيء، وهو يظنه بلا واسطة، فهو محجوب.

ومن هذا المنظر ينتقل إلى منظر الشهود، ترتيباً إلهياً.

* * *

منظر (الشهود)

يشهدك الله تعالى، في هذا المنظر، ظهوره في سائر مخلوقاته. وهذا المنظر أول المناظر الحقيقية، التي ليس فيها التباس، ولا تخييل، ولا تصور، ولا بطلان. بل يشهد الحق تعالى في سائر موجوداته.

وفي هذا المنظر ثلاث غرف، بين كل غرفة من المدارج والمعارج ما لا يحصى:

الغرفة الأولى: شهوده تعالى في كل شيء، بعد وقوع نظره في ذلك الشيء.

الغرفة الثانية: شهوده تعالى في كل شيء، عند وقوع النظر على ذلك الشيء من غير مهلة.

الغرفة الثالثة: شهوده تعالى قبل وقوع النظر على ما تشهده فيه.

وليعلم أن هذا الشهود: من غير حلول، ولا ممازجة، ولا مماسة، ولا نوع من أنواع التجسيم والتشبيه، ولا شيء من ذلك. بل يتجلى كما شاء، على ما هو عليه من التنزيه والكمال والتعالي، فيما شاء من المظاهر.

تلك سنّة الله، التي قد خلت في عباده من أوليائه: يتجلى عليهم، فيما يشاء، كما يشاء. ألا ترى إلى تجليه، سبحانه وتعالى، لموسى في النار المخلوقة، التي رآها إلى جانب الشجرة، فسمع لندائه أنه: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، فلم ينكر تجليه في النار، بل آمن وصدق. وقد ذكرنا بعض الأحوال الموسوية في كتابنا المسمى بـ(المملكة الربانية، المودعة في النشأة الإنسانية).

آفة هذا المنظر:

هو شهودك للخلق مع شهود الحق، لأنك إنما تشهده في مظاهره الخلقية، فلا بد من شهود المظهر متميزاً، ولا وجود لشيء سواه.

ومن هذا المنظر، ينتقل إلى منظر الوجود، ترتيباً إلهياً، فيما يتعرف به إلى أوليائه.

* * *

منظر (الوجود)

يتجلى الحق تعالى في هذا المنظر بأعيان المظاهر. فيكون عين الظاهر، وعين المظهر، وهذا أول مجالي الصفة الواحدية، لا يشهد صاحب هذا المنظر، لشيء في العالم وجوداً البتة. فلا يبقى للحادثات عنده أثر.

وهذا المنظر، لا تعمل للعبد فيه، بل بمحض الجذبات الإلهية. ومن ثم قال الجنيد، رحمه الله تعالى: «المحدث إذا قورن بالقديم لم يبقَ له أثر». فأتى بصيغة «قورن» ليصرف فعل المقارنة إلى الله تعالى، تنبيهاً إلى أن ذلك راجع إلى الجذبات الإلهية. فمتى كان للعبد فيه تعمل، فليس هو في هذا المشهد.

وفي هذا المنظر، ينفتح على الداخل فيه، علوم تنوعات التجلي. ويكشف له عن العالم كله، تجلٍّ في تجلٍّ، ليس شيء غير ذلك، ويكون عنده من العلوم: علم التحول في الصور، وعلم توحيد الوجود، وعلم المقادير. فلا يرى على أحد مما يصدر منه، ويطلع في هذا المنظر على السر الذي عبدت به المخلوقات من دون الله. فلا يخطىء رأي أحد، بل يتصوب عنده جميع أعمال الثقلين من الإنس والجن أجمعين.

وفي هذا المشهد، يطلع على السر الإلهي، الذي يكون شافعاً، لمن شاء الله تعالى، من عبدة الأوثان، والمشركين، وغيرهم من أهل النحل والملل الماضية. فيحصلون في حقيقة الإيمان، قبل الموت، أو بعده، ويحشرون في زمرة الموحدين، وهو سر قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

آفة هذا المنظر:

تلك البقية التي بها يشهد الظاهر والمظهر. فنفسه، في هذا المنظر، باقية على الأنانية، وهو لا يشعر.

ومن هذا المنظر ينتقل إلى تجلي الأفعال، فيذهب عن أنانيته ادعاء الفعل لا غير.

* * *

منظر (تجلي الأفعال)

اعلم أن هذا المنظر، هو والمنظر الذي بعده، تفصيل لإجمال، وتكميل ذوق المنظر الوجوي، السابق ذكره. فهذه المناظر الثلاثة، هي كالمدارج في المنظر الوجودي، فلا يكمل المنظر الوجودي إلا بقطع هذه المناظر الثلاثة، فهي من عين المنظر الوجودي. فأما تجلي الأفعال: فإن الحق تعالى، إذا كشف عن بصر بصيرة العبد، فبصره بتجلي الواحدية في العالم، فإنه أول ما يقع عنده من تفصيل ذلك الإجمال: إرجاع أفعاله إلى الحق تعالى، فينسبها إليه سبحانه، بعين ما كان ينسبها إلى نفسه.

وفي هذا المشهد: يسلب فعل العبد، وقوته، وقدرته، وإرادته، فلا يبقى له فعل، ولا قوة، ولا قدرة، ولا إرادة، بل هو كسائر الجمادات. فهو في هذا المنظر لا فعل له البتة: فلو تكلم، وسألته عن كلامه، لقال: لم أتكلم في هذا المشهد!.

وقد يفوت، ما يفوت، من الفرائض، وغيرها على من لم يحفظها الله تعالى عليه، من أوليائه. وقد يصدر ما يصدر عليه من شأن المعاصي، فيقال: عصى، وترك ما وجب عليه من الفرائض، وهو بريء من ذلك، مسلوب القوة، والقدرة، والفعل، والإرادة، تقلبه يد الأقدار، كيف شاء الله تعالى، يميناً وشمالاً. وإلى مثل هذا أشار تعالى، في قوله، عن أهل الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]. وفي هذا المنظر يفتح الله تعالى على النازل فيه: علم الأقدار، فيكشف له عن جريان القدرة في الأشياء، ويشهد جريانها في أفعال الموجودات.

ويكشف له عن اللوح المحفوظ، فيشاهد ما يريده الله تعالى منه، قبل وقوع الفعل عليه، وعلى غيره، بمثابة واحدة. فيشهد هذا المحل من اللوح المحفوظ، فيطلع على سر القدر: فيشهد بلا شهود، ينسب إليه. ويعلم بلا علم، ويرى بلا رؤية، ويفعل بلا فعل، يضاف إليه.

آفة هذا المنظر:

شغله بالقدر عن القادر تعالى، فهو مع الفعال بواسطة الفعل، وهذه الواسطة حجاب.

ومن هذا المحل ينتقل إلى منظر تجلي الصفات، إذا أشرف على الآفة.

منظر (تجلي الصفات)

في هذا التجلي تشهد صفات الحق، تعالى، النفسية. فكلما ظهرت لك صفة من صفاته النفسية، فنيت صفة من صفاتك، إلى أن تفنى جميع صفاتك النفسية: فإذا فني وصفك، شهدت وصفه، فتعلم حينئذ، أن حياتك، وعلمك، وإرادتك، وقدرتك، وسمعك، وبصرك، وكلامك، جميع ذلك، منسوب إليه، على حد ما كان منسوباً إليك. فتكون بلا صفة لك، بل تكون صفاتك، صفات الله. فتحقق أن لا حياة لك، بل الحياة حياته. وأن لا علم لك، بل العلم علمه. وأن لا إرادة لك، بل الإرادة إرادته، وأن لا قدرة لك، بل القدرة قدرته. وأن لا سمع لك، بل السمع سمعه. وأن لا بصر لك، بل البصر بصره. وأن لا كلام لك، بل الكلام كلامه.

وفي هذا المنظر: يجيب الله من دعاك بهذه الصفات، فلا تشهد وقوعها إلا عليه. فأنت بريء من شهود دعوى صفاتك، لشهودك أنها لله تعالى، كشفاً وعياناً.

يفتح الله عليك في هذا المجلى بمعرفة الوجود الساري، ويكون عندك هذا العلم من علوم التوحيد، وبالله التوفيق.

آفة هذا المنظر:

هي تلك البقية التي نسبت بها الصفات النفسية إليك، وهذا حجاب، لكون تلك البقية، باقية فيك، وقد ذكرنا القول في تجلي الصفات، صفة، صفة، في كتابنا الموسوم بـ (الإنسان الكامل)، وذكرنا كيفية ذلك في كتابنا الموسوم بـ (قطب العجائب، وفلك الغرائب) فإن أردت تحقيق ذلك، فطالع في أيهما شئت.

* * *

منظر (اترك نفسك وتعال)

ترك النفس: إنما هو بجحود الأنية، وإثبات الهوية الإلهية عوض أنيتك. فتكون أنت لا أنت، بل أنت هو، بل ما أنت هو، لأنه هو هو.

وفي هذا المشهد: تضاف أسماء الحق تعالى إليك، فتجيب الداعين بها. فإذا قال قائل: يا الله! أجبته أنت: لبيك وسعديك! وما أنت المجيب، بل الله الذي أجاب من دعاه. لطيفة إلهية، لا يعرفها إلا الواقع فيها، ذوقاً وجودياً، وكشفاً حقيقياً.

وفي هذا المشهد: تتنزل عليك الأسماء الإلهية، اسماً فاسماً. والصفات الرحمانية، صفة صفة. وأنت تقبل منها بقدر ما يقتضيه حالك من قوة القابلية، وتحقيق الكشف. فيكون عندك من العلوم اللدنية: علم الحضرة النفسية، وما يتعلق بها من الشؤون، والمقتضيات، والإضافات، والنسب، والظهور، والبطون، والأولية، والآخرية، إلى غير ذلك.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابك بأنوار الأسماء والصفات، في الاتصاف بها، عن حضراتها، ومخاطباتها، بعضها لبعض، بما في مطاوي حقائقها، مما هو لله تعالى. وهذا حجاب، فإذا خرقته انتقلت إلى محاضرات الأسماء والصفات، وسمعت مخاطبات بعضها مع بعض، على حسب ما في قوة قابليتك. والله المعين، لا رب غيره.

❊ ❊ ❊

منظر (محاضرات الأسماء والصفات، ومخاطبات بعضها لبعض)

وفي هذا المنظر: يخاطبك كل اسم وصفة، بما يقتضيه من حقائق الجمال والجلال والكمال، وتسمع مخاطبات بعضها لبعض، وتتنزل عليك المعاني الإلهية، أطواراً بعد أطوار، وأدواراً بعد أدوار.

وفي هذا المشهد: يفتح عليك بأسرار إلهية، لا يسع شرحها، من علوم الأحدية والواحدية، ومن علوم الألوهية والرحمانية وخصائص الأسماء. وتشرف من هذا المحل على حقائق المراتب الكمالية: فلا تمر باسم صفة، ولا نعت وصف، ولا صفة فعل، ولا اسم ذات ـ إلا يناجيك بحقيقة ما فيه من الكمالات الإلهية، وكلما ناجتك حقيقة بما فيها، انطبع فيك ما بلغته إليك من تلك الأمور الكمالية، المودعة فيها، على قدر قابليتك. فتعلم حينئذ حقيقة أنهم لم يحملوا تلك المعاني الكمالية لأنفسهم، بل حملوها لذاتك.

ولهذا المشهد طرفان: أدنى، وأعلى. فمن كان في طرفه الأدنى: فإنه يجد ما يجد، من حضرات الأسماء، متعلقة بالذات الإلهية، ويسمع ما يسمع، من مخاطبات الصفات، بما تقتضيه حقائقها، من حيث ما هي صفات الحق مطلقاً.

ومن كان في طرفه الأعلى. فإنه يجد جميع تلك، الأسماء والصفات، من حيث أنها أسماؤه وصفاته، لما تقتضيه حقيقته، تبارك وتعالى. فهي له، يتصرف في مقتضياتها، بلذة علم أحوال تلك المخاطبات والمسامرات، لذة المالك فيما يملك، والمتصرف فيما يتصرف. فإن كمل، وأفناه هذا المشهد، عن سائر البقايا الذاتية البشرية، وتطهر عن نقائص وجوده، فإنه يرتقي من هذا المشهد إلى الفناء الذاتي، المعبر عنه بالسحق ثم المحق.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابه بمحاضرات الأسماء والصفات، عن إعطاء حقائقها حقوقها، كل اسم بما هو عليه، وكل صفة بما هي عليها، من معاني الجلال والجمال.

* * *

منظر (الفناء الذاتي)

تضمحل في هذا المنظر ذاتك، وتفنى عن صفاتك، وعنك، وعن كل ما ينسب إليك من النعوت، والأفعال والآثار. فيتلاشى وجودك، وينعدم تركيبك، فلا تشاهد لك جسماً، ولا روحاً، ولا قلباً، ولا سراً، ولا صورة، ولا معنى. بل يتجلى الحق عليك في جميع ذاتك، فتنعدم تحت تجليه من جميع جهاتك. فلا يبقى لك علم، ولا عين، ولا عمل، ولا حق، ولا حقيقة. قد أخذك، عنك، له، فلا شيء منك بجهة من الجهات باقٍ. وتلى عليك في هذا المنظر: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القَصَص: ٨٨] وهذا هو السحق، والله الموفق.

آفة هذا المنظر:

بقية شعور يبقى فيك، تدرك به، أنك فان.

* * *

منظر (الفناء عن الفناء)

في هذا المشهد يتحقق فيك حكم المحق، والطمس، والمحو، والانعدام. فتفنى أولاً عن ذاتك، وجميع ما ينسب إليها. ثم تفنى عن الفناء، فيأخذك أمر ضروري، إلى ذات واجب الوجود. فيكون مشهدك في الله، مشهده فيه، وأنت كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسَان: ١].

آفة هذا المنظر:

هو هذا الحجاب، الذي سلط عليك، من شهودك فناك، وأنت موجودك. فشهود الموجود، فانياً، منعدماً، هو حجاب. لكنك، إذا أخذ الله بيدك، في هذا المشهد، ورقاك، من بين يديه، إلى عنده، أبقيت ببقائه.

* * *

منظر (البقاء)

يبقيك الحق، تعالى، في هذا المشهد، بنوره الذاتي، فيرد عليك وجودك، كما كان أو: فتشهد سمعك، وبصرك، وعلمك، وقدرتك، وقوتك، وحياتك، وكلامك، وفعلك، وحالك، كلها منسوبة إليك. وتعلم حقيقة: أن حياة الله، وعلمه، وسمعه، وبصره، وإرادته، وقدرته، وكلامه ـ غير علمك، وحياتك، وقدرتك، وأمثال ذلك. وتتميز صفات الله تعالى عن صفاتك. فتلحق الكمالات به، وتلحق بك، ما هو منسوب إليك، من الكمال والنقص. فتشهد الحق حقاً، وتتبعه. وتشهد الباطل باطلاً، وتجتنبه، يعني: تشهد مخلوقيتك، ونفسك، وذاتك، فتجتنبها. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أصدق كلمة قالتها العرب شعراً: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

ثم علمنا في قوله: «اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه. وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه»[2].

واتباع الحق، في هذا المشهد: أن تنسب إليه ما يستحقه من الكمالات، وتنزهه عما لا يليق بكبريائه تعالى.

ومن هذا المشهد: يكون بداية أهل حق اليقين، في إعطائهم الحق حقه. ومن هو دون هذا المشهد، فليس هو من أهل حق اليقين، بل هو من أهل عين اليقين، أو علم اليقين. وسيأتي بيان هذه الثلاث المراتب، فما بعد، إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب أيام الجاهلية، برقم (٥٧٨٤) [ج١٣ ص١٠٠] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، برقم (٢٢٥٦) ورواه غيرهما. ونص رواية البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره [ج٢ ص٢٥٢].

آفة هذا المنظر:

هو اشتغالك بذات الله، تعالى، عن صفاته. فأنت إذاً محجوب به عنه. ومن هذا المشهد، ترتقي إلى التلوين.

* * *

منظر (التلوين)

هو مشهد ذاتي، تتلون فيه، بمعاني الأسماء والصفات. فيغلب عليك في كل زمان حكم صفة، فتكون في لون غير ما كنت عليه قبل.

وفي هذا المشهد: تجد من اللذة الإلهية، ما يسري في جميع أجزائك، إلى أن تكاد أن تخرج روحك من عالم التركيب، إلى عالم الأرواح، لشدة اللذة المنطبعة فيك. تجدها، حكم الضرورة، محسوسة، كما تجد لذة المحسوسات. وقد أخذت هذه اللذة فقيراً عن محسوساته، حتى غاب عن الكون، وما فيه، فلما رجع إلى نفسه، وجده قد أمنى، لما سرت فيه اللذة الروحانية، فعمت الروح والقلب، ثم أفاضت على بشرة جسده، فأعطاه الجسد حكم بشريته، فكان ما كان.

وقد أنكر هذا الحال، بعض المشايخ المتقدمين، من علماء الصوفية، فقال: إن ذلك للبقايا التي فيه من البشرية.

وأين البشرية منه، في هذا المقام؟! بل إنما هو بحكم البشرية في هيكله الجسماني، لا لبقاياها في نفسه المطهرة، فاعلم!.

آفة هذا المنظر:

هو انقهارك تحت حكم مقتضيات الحال، بحسب الصفة المتجلي فيك ظهورها، وليس هذا شأن الكمال الإلهي.

* * *

منظر (التمكين)

في هذا المشهد: يتجلى الحق تعالى للعبد، بذاته، من حضراته، فيتصف حينئذ بأسمائه وصفاته. فيمكنه بنصب الحضرة الإلهية بين يدي العبد، فيأخذ منها ما شاء، ويترك ما شاء، ويظهر أثر ما شاء، متى شاء.

وعند الدخول في هذا المشهد، يسمع العبد صلصلة الجرس. وعند التوسط فيه، يرى الرفرف، والنعلين، والتاج، والسرير، والمتجلي في ذلك، على الصورة المذكورة في الحديث النبوي.

آفة هذا المنظر:

هو أن العبد لا يدرك نهاية الصفات، التي قد اتصف بها، من صفات الله تعالى، لا كلها، ولا واحدة منها. وإن حصلت له الإدراكات، ففي الشأن الإلهي، على طريقة الإجمال، مع شهود التفصيل في الإجمال، حكماً، لا عيناً. وهذا نقص، لأن الحق تعالى يدرك صفاته، وما اقتضته كل صفة من الآثار، إجمالاً وتفصيلاً، وجودياً وعينياً، ليس عنده في ذلك شائبة خفاء، ولا عجز. وهذا لا سبيل إلى استيفائه، لأحد من خلق الله تعالى، ولكن الكمل متفاوتون في ذلك.

هذا المنظر: أول مقامات الوصول، عند الكمل. وعلى الحقيقة: فما ثم مقام ينتهي إليه الواصل، بحيث الاستقرار، لأن الله تعالى، لا نهاية له. فكذلك الذاهب بمعارفه الإلهية، لا نهاية لمقاماته. وليس فوق هذا المقام، المسمى بالتمكين، مقام إلا: القربة، فالخلة، فمقام الحب، فالعبودية المحضة. وبين كل مقامين، من هذه المقامات، من المناظر: ما لا نهاية له. وفيها يتفاوت الكمل: كل أحد على قدر قوة علمه، ووفور عزمه، وعلو همته، وحسن قابليته، وصدق نفوذه في ذهابه، وظهور أثر باطنه على ظاهر إهابه، فاعلم. نزلنا على حكم الترتيب، إلى تفصيل ما أمرنا الحق، تعالى، بتوقيعه، في هذا الكتاب، على حسب الوضع الحقيقي الإلهي. والله الموفق، لا رب غيره.

* * *

منظر (المكالمة)

كلام الحق تعالى، يسمعه العبد، بسمع الله تعالى: فيكون مع الكلام بكلية جسده، وقلبه، فتذهب كليته في سماع الكلام.

وفي هذا المشهد: يقرب العبد، فيؤتى به إلى حضرات الاصطفاء: فتارة يسمع الكلام من كل جهة، فلا يتقيد سماعه بجهة، دون أخرى. وهذا النوع يسمى (المكالمة).

وتارة يسمع من جهة، على لسان الخلق، ويعلم أن الله هو المتكلم، فيعتقد عدم الجهة، ولو سمع من جهة. يقع ذلك عنده لضرورة كلام الله تعالى، كما في النار، والشجرة الموسوية. وهذا النوع يسمى (المخاطبة).

وتارة يسمع من جهة، لكن لا على لسان الخلق، بل يسمع كلام الحق، من الحق، بالحق. وهذه الجهة غير مقيدة بالجهات الست المخلوقة، بل هي من جهة القدس الأعلى، المنزّه عن الجهة المخلوقة، تعالى شأن من هي له. وهذا النوع يسمى (المحادثة).

وتارة يسمع من قلبه كلاماً، يعلم أن الله هو المتكلم به ضرورة. وهذا النوع يسمى (المسامرة).

وسيأتي بيان هذه الأنواع، فيما بعد، إن شاء الله تعالى. وقد بيّنّا أنواع المكلمين، في كتابنا الموسوم بـ(الإنسان الكامل)، وشرحنا كيفية أحوالهم في مناظرهم. فمن أراد معرفة ذلك، فليطالع فيه.

وفي هذا المشهد: غيبت عني، فسمعت بكليتي، لكن بالله تعالى، وأنا يومئذ مبتدىء في سلوك طريق القوم. سمعت: يا فلان! أنت محبوبنا، وكل أحبّنا وطلبنا. ولكن، نحن أحببناك، وطلبناك! فبعد أن رجعت إلى محسوساتي، أخذني هيمان لشدة ما بقي عندي من حال أثر تلك اللذة، فقعدت عن الطعام والشراب، ما شاء الله. وكنت أحياناً إذا طرأ ذلك علي، يحصل عندي، بعد رجوعي إلى الحس، مثل ما كان يحصل علي في مغيبي. وكنت أظنه من جنسه، فلما كشف الغطاء، تحققنا أن الحاصل عندنا، بعد الرجوع إلى الإحساس، إنما هو من مخاطبات الروحانيين العلويين، كان يشتبه علي، لعدم التمييز. فالحذر، الحذر، من الوقوع في مثل هذا التشبيه والبقاء عليه.

آفة هذا المنظر:

هو أن المكالمة، وسائر ما تحتها، من هذه الأنواع، لا تكون إلا عن حجاب. ولا يمكن حصول المشاهدة، والمكالمة، في حالة واحدة. وسبب ذلك: أن المشاهدة تقتضي الفناء والانعدام. والمكالمة تقتضي الوجود والبقاء. ويبقى من الشخص ما يسمع به، فلا تكون المكالمة إلا من وراء حجاب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

* * *

منظر (المسامرة)

هو أعلى المناظر، في باب سماع كلام الله تعالى، لأن المسامرة عبارة عن: سماع كلام الله، تعالى، في قلب العبد، من غير جهة.

وبقية الأنواع ليست كذلك، بل شيء على لسان المخلوقات، وشيء على غيره، من كل جهة، كما سبق بيانه في المنظر المتقدم.

والقلب عرش الله، فسماع كلامه على عرشه، أعلى، وأشرف من سماع كلامه على غيره من المشاهد. وقد ورد أن الله تعالى يقول: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن». وبالضرورة لا يرد على القلب من المكالمات، إلا بقدر قابليته. وفرق كبير بين قابلية قلب المؤمن وبين قابلية غيره من العوالم. فلا بد أن تكون العلوم الواردة، بطريق المكالمة، على القلب، أشرف من سائر العلوم الواردة على ألسنة المخلوقات، ولو كان الله المتكلم بها، فإن للمحل حكماً في قبول الفيض على قدر قابليته. فافهم!.

آفة هذا المنظر:

هو الحجاب المتقدم ذكره.

* * *

منظر (المخاطبة)

يسمع العبد، في هذا المنظر، مخاطبات الحق. على ألسنة المخلوقات، حكمة إلهية. والعجب أن العبد قد يسمع كلام الحق، تعالى، على لسان متكلم، والمتكلم، في تلك الحال، متكلم بكلام غير ما يسمعه المخاطب. وهذا لا يكون في كل المخاطبات، بل يتفق هذا على قدر ما يريده الله، تعالى، في بعض مخاطباته، فيما يتعرف به إلى عبيده.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابه بالكلام، عن الشهود، لما سبق بيانه.

* * *

منظر (المحادثة)

هذا المنظر لا يمكن لأحد أن يستقيم فيه، وعنده بقية من محسوساته، بل يغيب العبد عن عالم الأجسام بالكلية. فيذهب به في عوالم الملكوت، كل على قدر ما يخصه الله تعالى ويصطفيه.

وفي هذا المنظر: يوضع لأهل المناظر منابر النور، ويضرب عليها سرادق الأنوار، وترفع لأهله معارج الأنوار. فيرتقون فيها، ويرزق فيها، من يرزق، أجنحة كالملائكة، فيطير في جوف الفلك إلى أن يبلغ السماء الأولى، فالثانية، فالثالثة. ولا يزال يترقى إلى أن يبلغ سدرة المنتهى:

- فمنهم من ينادى بعلوم الأكوان.
- ومنهم من ينادى بعلوم القدر.
- ومنهم من ينادى بعلوم أهل الآخرة.
- ومنهم من ينادى بعلوم التوحيد.

وهذا المنظر ليس فيه سؤال، بل كله ابتداء إلهي يفجأ العبد، لا يكون فيه سؤال عن شيء البتة.

والمناظر التي فيها السؤال، هي المتقدم ذكرها: من منظر المكالمة، والمسامرة والمخاطبة. وأما هذا المنظر، فليس فيه سؤال من العبد، بل كله ابتداء. فإذا رجع من هذا المنظر إلى محسوساته، سأل، فإذا علم الله سؤاله، وأراد أن يجيبه، أخذه عن محسوساته، فابتدأه بجواب ذلك، في هذا المنظر.

وشرط هذا المنظر: أن العبد لا يسمع من جهة مخصوصة البتة، ولا يدري من أي جهة جاء الخطاب، لأنه لا جهة له، بل يتحقق بالضرورة أنه كلام الله تعالى.

آفة هذا المنظر:

هي تلك الغيبوبة، وذلك الحجاب المتقدم ذكره.

* * *

منظر (المسايرة)

يخرج الحق تعالى للعبد، في هذا المنظر، درجاً، يقرأ فيه ما سطرته يدي القدرة للعبد في الأزل، فيقرأ سابقته حرفاً حرفاً، ويعلم مجمله وتفصيله. فإن تحقق

بذلك، جيء إليه بنهر من الحوض الكوثر، الذي هو حوض النبي، ﷺ، فيشرب منه شربة، لا يظمأ بعدها. فإذا سكر بلذة ذلك الشراب الطهور، أبرز الحق تعالى له أسماءه وصفاته، فيجاريه العبد في ذلك، فلا يظهر الحق تعالى له صفة، ولا يجاريه العبد في ذلك، حكمة إلهية! لأنه لا يطلعه، في هذا المنظر، إلا على الصفات التي سايره العبد فيها، ويكتم عنه ما يستأثر باتصافه تعالى، إكراماً للعبد في هذا المشهد. فيخرج العبد من هذا المنظر، وقد ساير الحق تعالى، في جميع ما علمه فيه، من أسمائه وصفاته.

آفة هذا المنظر:

هو وجودك في حضرة الحق تعالى، وذلك حجاب. فقد قيل شعراً:

وجـــودك ذنـــب لا يـــقـــاس بـــه ذنـــب

* * *

منظر (التعليم)

يؤدب الحق تعالى عباده، في هذا المشهد، بأنواع الأدب، فيتعلمون فيه من الحق: كيفية الدخول في الحضرات، وكيفية الخروج عنها، وكيفية الوقوف في كل حضرة، وكيفية العمل اللائق بكل مقام، وكل حال. ويتعلمون فيه من الحق علوماً تجل عن الكشف، فلا نرفع لها ستراً.

وفي هذه الحضرة: من التحف ما لا يخطر على قلب بشر، ولا حضرة نبي، ولا ملك.

رأيت عباد الله، في هذا المنظر، على أمكنة مختلفة:

- فمنهم من يذهب الله تعالى به، في هذا المنظر، عشر درجات.

- ومنهم من يذهب به عشرين درجة، وثلاثين، وأربعين، وخمسين، إلى ما لا نهاية له من الدرجات.

وكلما وصل درجة، وجد فيها مفتاح خزانة من العلوم الإلهية. فإذا ترقى منها، ترك ذلك المفتاح، في تلك الدرجة، لمن يصل بعده، فيمر عليها. وهكذا جميع درجات هذا المنظر.

سألت عن آخر هذه الدرجات، فقيل لي: لا حد لآخرها، ولا نهاية لغايتها!.

فقلت: قد تبلغ هذه الدرجات إلى الحق؟.

فقيل لي: نعم! وإلى أسمائه وصفاته!.

فقلت: هل تبلغ إلى الرحمانية؟.

فقيل: نعم! وإلى الألوهية!.

فقلت: هل تبلغ إلى الواحدية؟.

فقيل لي: نعم! وإلى الأحدية!.

فقلت: فما بعد ذلك، والأحدية تضمحل فيها العلوم، وتمحى فيها الرسوم؟!.

فقيل لي: وإلى الذات، ولا نهاية للذات.

آفة هذا المنظر:

هو ذلك التعلم، وهو حجاب. لأن العالم لا يحتاج إلى تعليم، والأديب لا يحتاج إلى تأديب. والتعليم، والتأديب، لا يكون إلا عن حجاب، ولو كان رقيقاً، فهو حجاب.

* * *

منظر (الوقوف)

لا يوقف بين المقامين إلا من يريد الله تكميله. والوقفة بين المقامين، دليل على قوة سير العارف. فإن من لا وقفة له، سكران بخمار المقام الذي خرج عنه، وهو لا يدري. فيزعم أنه في السير، للسكرة التي هو فيها، وهو واقف من حيث لا يشعر. وهذا دليل على بطوه في الطريق.

وسر الوقفة بين المقامين: هو أن يميز العارف بها ما قد مضى، ويعرف بها أدب المقام، الذي هو مقصد لدخوله، فكل واقف أديب. وعلى الحقيقة، ما للعارف وقفة، لأنه دائم السير:

فيعلم علماً في السكر، ثم يعلم علماً في الصحو. ولا يزال ينتقل من سكر إلى صحو، ومن صحو إلى سكر. فحينئذ، تكون الوقفة عبارة عن:

الوقوف بين يدي الله تعالى، في منظر من المناظر، إما صحواً، وإما سكراً، فافهم!.

آفة هذا المنظر:

هو تعاقب السكر والصحو، بحكم الانفراد، وهذا نقص. وليس الرجل إلا من كان ذا سكر في صحو، وذا صحو في سكر. فلا يتعاقبان عليه، بل لا يفارقانه أبداً.

* * *

منظر (السير)

السيارون في الله: هم الأفراد الواصلون إلى الله تعالى، يجدون فيه لذة ذاتية، تأخذهم، بحكم الضرورة، إلى قطع أفلاك كل سماء صفة ذاتية، أو اسمية، أو فعلية. فيستوفون منازل كل برج من أبراج مقتضيات تلك الصفة، بالذوق الحالي، لا بالاتصاف الذوقي. وبينهما تفاوت، لا يعلمه إلا واجده. وهذا كلام لا يفهمه إلا الغرباء.

وأما السير، فإنه عبارة عن: تجاوز المقامات، وقطعها، بغير مكث في شيء منها بحكم العائق.

آفة هذا المنظر:

هو أن السير لا يكون إلا لمحدود محصور، في طريق كان غائباً عنها. وليس ذلك من شأن الكمال الإلهي، الذي يمنحه كامل عباده. والسيار في درجة النقص عن صاحب الشأن الكمالي، بهذا الاعتبار. واعلم أن الفرق بين السيار والطيار، لا يكون إلا في الذهاب إلى الله، لا في الذهاب في الله:

فالطيار، في الذهاب إلى الله: هو الذي يتجاوز المقامات، ويقطع منازل المنازلات، والتعرفات الإلهية، من غير عائق، ولا مانع.

والسيار، في الذهاب إلى الله تعالى: هو الذي يقطع مقامات الطريق، التي هي كالزهد، والتوكل، وأمثال ذلك. ويقطع منازل المنازلات، التي هي كالمراقبة، والتجلي، والشهود، وأمثال ذلك. يقطعها مع البطء في الطريق، والمكث فيه، بحكم العائق الماسك له، بسبب ما فيه من العوائق القلبية، والقالبية، والفعلية، والحالية. فإذا وصل إلى التجلي، الذي يسمى فيه أهله: (واصلين)، وإلا فلا وصول. لأنه لا يبقى لطيرانه حكم، بل يصير من جملة السائرين في الله تعالى، فافهم!.

* * *

منظر (الرجوع)

هذا المنظر: ترجع فيه إلى المحتد الأصلي، الذي خلقك منه. وهو ذلك النور الذاتي الإلهي، الذي نزل من حضرة علمه، إلى حضرة العين. وتتصف من الأوصاف، بقدر ما تجلى الله عليك حين خلقك. فترجع إلى الله تعالى، كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]. قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: ٨٨] يعني: من وجودك الخلقي، الذي تتوهمه لك.

﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] يعني: وجه الله، فإنه باق، من وجودك فيه، بغير حلول، ولا ممازجة، ولا مماسة، ولا غيرها.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص: ٨٨] يعني: لله الحكم في وجودك، فلا لوجودك حكم إذا عرفته بل على الحقيقة، ليس الحكم إلا له.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]: طوعاً، أو كرهاً في الدنيا، أو في الآخرة. بعد دخول الجنة، أو دخول النار. لا بد من الرجوع إليه، فيحصل لك ما سبقت العناية الإلهية به، عند تجليه عليك، يوم خلقك بالشأن الإلهي، فافهم!.

آفة هذا المنظر:

هو حدوث التغيير عليك، من الذهاب والرجوع. وليس ذلك من شروط الإلهيين في الكمال.

* * *

منظر (البشائر)

تتواتر البشائر الإلهية على العبد، في هذا المنظر، فيبشرونه بالكمالات الإلهية، والمقامات القطبية، والاختصاصات الاصطفائية، إلى ما لا يخطر بالبال، ولا يمكن شرحه بشيء من المقال. فيجد لتلك البشائر، الواردة في نفسه، من علامات صحة وقوعها، ما لا يحتاج إلى زيادة تأكيد.

وورود هذه البشائر على ثلاثة أنواع:

ـ النوع الأكمل: هو أن يكشف الله تعالى لك، أولاً، عن ما أودعك من أسراره، التي استعدت قابليتك لقبول فيض ما إلهي، ثم يبشرك بأخباره من طريق المكالمة، أو المحادثة، أو المخاطبة، أو المسامرة ـ أنه يبلغك ذاك المقام، فهذه بشارة أكمل البشائر.

ـ وأما النوع المتوسط: فهو أن يحصل الإخبار الإلهي للعبد من غير أن يكشف له عن سره، الذي تستعد به القابلية على قبول الفيض اللائق بذلك المقام، الموعود به له. فهذا يحتمل فيه الوصول إلى ما وعد به على طريق الملك، ويحتمل فيه الوصول على طريق العارية، ويحتمل فيه الوقوع على الأمر إجمالاً: فقد شاهدنا فقيراً، قيل له: ستبلغ إلى مقام القطبانية! ثم مات قبل ذلك، ولم ينل ذلك المقام، وقريباً منه. على أن هذا الفقير كان وارده حقاً، لا ريبة فيه، ولكنه وصل إلى تجلي اسم إلهي، وتجلي اسم الله تعالى: قطب رحا العالم. لأن العالم بأجمعه، لا يدور إلا على تجلي أسمائه وصفاته. عبر له عن ذلك التجلي، بمقام القطبية، وقد بلغه، وكان عنده من مفهوم البشارة خلافها.

ـ وأما النوع الثالث من البشائر: فهو ما يرد عليك، في هذه الأنواع من البشارة، بطريق مخاطبات الملائكة، أو منام تراه، أو يرى لك، أو بتصريح ولي، جرت سنة الله أن تصدقه في كشفه. وأخبار الولي أعلى من أخبار الملك، ومن سائر الرؤيا.

آفة هذا المنظر:

هو أن البشائر لا تكون إلا قبل حصول الشيء، وهذا نقص في حق الكمل، فإن الكامل لا يفوته شيء. فمتى ورد عليك شيء من أنواع البشائر، فاعلم أنه لضعف فيك، أو نقص عندك. وليس ذلك دأب فحول أهل الله تعالى، فافهم!.

* * *

منظر (النذائر)

يطلع العبد، في هذا المنظر، على تقلبات القلوب، وما تقتضيه كل تقليبة من البُعد عن الله تعالى. ويتحقق بعلم الآخرة: فينظر الأعمال جميعها، حللاً وملابس على ذات العامل. ويرى الأخلاق كلها، صوراً لصاحبها. ويطلع على زيغ القلوب والأبصار، لشدة وقوع أهوال الآخرة. ويرى ما فيه من المواضع، التي تقتضي الخوف لأجلها، فترد عليه ملائكة المقام، بأنواع النذائر. وتبصره بأحوال طريقه، فيحصل عنده من الخوف، ما يكاد أن يذيب كبده، وشحمه، وكلاه. فيموت من يموت في هذا المقام، لشدة الخوف، ويختل من يختل عقله، ويرجع من يرجع، من المعارف، إلى السلوك. ويحفظ الله من أراد تكميله.

ومن حكمة الله أن جرت سنته في النذائر، أن لا يتوعد العبد بها من طريق المكالمة، والمحادثة، وأمثال ذلك من الإخبارات الإلهية التي هي بلا واسطة. بل لا بد وأن تكون بواسطة منه، وفضلاً.

آفة هذا المنظر:

هو أن الخوف، والنذائر، وأمثال ذلك، من لوازم المقامات الخلقية. والكامل: من لا يكون عنده من مقامه الخلقي أثر، سوى من حيث الاطلاع الإلهي، فافهم!.

وما ورد عن رسول الله، ﷺ، أنه قال: «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم خوفاً منه»[1] فليس من هذا القبيل، بل تلك من الخصوصيات النبوية المحمدية، التي بها يتم له مقام الوسيلة، وهي الشفاعة الكبرى. فخوفه من الله تعالى إنما هو على أمته، لا على نفسه، لأنه الموعود بتمام النعمة، في نص القرآن، فليس خوفه من قبيل خوفنا.

* * *

منظر (العلم)

اعلم أن علم اليقين، عبارة عن: معرفة الله الخاصة الذوقية، التي يمنحها من شاء من عباده.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابه بعلم اليقين، عن عين اليقين.

* * *

منظر (العين)

اعلم أن منظر عين اليقين، عبارة عن: شهود تجليات الله تعالى الصفاتية، والأسمائية، والذاتية، بحكم الوجدان والاطلاع التفصيلي.

---

(١) رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٩٥٦) [ج٦ ص١٢٢] ولفظه: عن عروة عن عائشة أن ناساً كانوا يتعبدون عبادة شديدة فنهاهم النبي ﷺ فقال: «والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له» وكا يقول: «عليكم من العمل ما تطيقون فإن الله عز وجل لا يمل حتى تملوا» ورواه غيره بألفاظ متقاربة.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابه بعين اليقين عن حق اليقين.

* * *

منظر (الحق)

حق اليقين: هو الاتصاف بتلك التجليات الإلهية، منك فيك بلا واسطة اسم، أو فعل، بل بذاتك، في ذاتك، لذاتك، كما يشاء الله تعالى، من غير تشبيه، ولا حلول، ولا نوع من النقائص.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابك بحق اليقين، عن حقيقة حق اليقين.

* * *

منظر (الحقيقة)

حقيقة حق اليقين: هو عطاء كل حق إلهي حقه، مما يتصف به العبد من أسماء الله تعالى، وصفاته. فيظهر أثر كل اسم وصفة، بما يستحقه من التصريف في الأكوان، على ظاهر العبد المتصف. فإذا أعطى الأسماء الإلهية حقائقها، بإظهار آثارها على هيكله، فذلك هو العبد حقيقة.

آفة هذا المنظر:

رجوعه من التجلي الذاتي، إلى التجلي الفعلي والإسمي والوصفي. فإن ظهور الأثر، لازم للرجوع من الذات إلى الأسماء والصفات والأفعال. وهذا، في حق العبد، نقص، لا في حق الله تعالى. فإن بقاء العبد مع الله في التجلي الذاتي، أكمل وأعلى، من بقائه في التجليات الصفاتية والفعلية. هذا لمن ظهرت آثارها عليه، وأما قبل ذلك، فهو، إذاً، باق على نقصه، فافهم.

* * *

منظر (الوحدة)

للوحدة منظر يجل عن أن يدركه المخلوق. فليس للمخلوق فيه راحة، بوجه من الوجوه.

وفي هذا المشهد: يسلب الحق، تعالى، العالم، ما ألبسهم من حلل الدعاوى الكاذبة، المشعرة بوجود موجود سواه. فإذا تعروا عن ذلك، تجلت أنواره في الموجودات، بغير حلول، ولا مزج، ولا شائبة نقص، بل بحكم الوحدة الإلهية، التي هو عليها منذ كان.

يطلع العبد على هذا المنظر، بعد أن تسلب عنه عبديته، وموجوديته، فيكون ما لا يدخل في العبارة. فهو يدرك ما يدرك، بلا وجود له، ولا إدراك، وهذا في العقل محال.

وقد وجدناه: ذوقاً، وعياناً، وحقاً، وحقيقة، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

آفة هذا المنظر في حق العبد:

انعدام الأسماء والصفات عنده، فلا يشهدها، وهو حجاب.

* * *

منظر (الإبهام)

هو عبارة عن: تجلٍّ إلهي يشهدك الحق، تعالى، فيه، أسراره المودعة في مخلوقاته. ويطلعك على تداخل الأسماء والصفات: كيف يفضل بعضها بعضاً من وجه، ثم يصير الفاضل مفضولاً من وجه. وكيف يثبت النفي، وينفي الإثبات، في مسألة واحدة، من وجه واحد، ومن وجوه مختلفة. ويطلعك على العلوم اللدنية، كحقائق العالم، فتشهدها من الغيب الإلهي، في الكينونة العلمية، من حيث أعيانها الثابتة. ثم تشهد طمساً، تحت نور الأحدية، في ذلك المقام، وتنعدم عنك الأعيان الثابتة بالكلية. فينبهم الأمر عليك في سائر أمورك كلها، حتى لا تكاد تنفذ أمراً من أمورك، ولا تعمل عملاً من الأعمال. لأنك ترى الشيء ونقيضه، فتحكم في المسألة الواحدة، من وجه واحد، بحكم أنت حاكم فيها بنقيضه. وقد تتوقف، لتناقض الأمور عندك، فلا تستطيع الثناء، ولا الذم، ولا يمكنك النفي، ولا الإثبات، وهو مقام من مقامات الحيرة.

آفة هذا المنظر:

هو الحيرة الطارئة عليك، من انبهام الأمر لأن الكمال الإلهي منزّه عن ذلك، وصفة العارف صفة معروفة، فالحائر محجوب.

* * *

منظر (الفتق)

يتجلى الله، تعالى، عليك في هذا المنظر، بتجلٍّ: يفتق فيه ما ارتتق عليك، أو على غيرك، من العلوم الإلهية، والمعارف الربانية، وتعلم محل التباس الأمور.

يكشف لك في هذا التجلي عن تداخل العلوم والمعلومات بعضها في بعض، فترى المسألة الواحدة المعقولة في ضد ما يقال، بعينها في ضده، لكن من جهة أخرى، لتداخل حضراتها في بعضها بعض.

وفي هذا المنظر: يفتح عليك بتمييز الفهم عن الله، تعالى، وتعلم الخاطر الأول، الذي يسميه سهل بن عبد الله التستري بـ(السبب الأول)، وهو خاطر إلهي لا يكون إلا حقاً. وتعلم الخاطر الملكي، والخاطر العقلي، والخاطر النفسي، والخاطر الشيطاني. فتجد لكل خاطر من الخواطر محلاً من قلبك، متميزاً عن الآخر، تعلمه من حيث محله، لا من حيث ما يدل بعلمه. فلا تعلم حقيقة أمر هذه الخواطر، على التمييز، إلا في هذا المنظر.

واعلم أن هذا المنظر لا يكون إلا في مقامات البقاء، وأما من لم يكن من أهل مقامات البقاء، فما عنده من هذا المنظر شيء.

وفي هذا المنظر: لا يحجبك الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، ولا تحتجب عن الأسماء بالصفات، ولا عن الصفات بالأسماء، ولا عنهما بالذات، ولا بالذات عنهما.

آفة هذا المنظر:

هو أن الفتق لا يطرأ إلا على محل الرتق، ولا يكون الفتق والرتق إلا لمن هو دون مرتبة الكمال. لأن العلوم عندنا صور ثابتة متميزة، ليس لشيء منها بشيء التباس، ولا امتزاج، ولا ارتتاق يحتاج إلى افتتاق، بل أعيان قائمة، مشهودة بحقائقها، إجمالاً وتفصيلاً، سمعاً وعياناً.

* * *

منظر (الإجمال الكلي)

هو مشهد يريك الحق تعالى فيه كليات الأمور، فتشهدها بقوة الواحدية الإلهية، حتى تنطبع أنت في أعيان سائر الموجودات، بما هي عليه. فتذوق فيك حالها، وما

هي عليه جملة. وإن حصل لك الإمداد في هذا المشهد، فصلت في الإجمال. فكان علم الأشياء لك فيه بالإجمال عياناً، وبالتفصيل حكماً. ومن هذا المشهد تنتقل إلى منظر التفصيل.

آفة هذا المنظر:

هو أنك تعلم الأشياء، وإن سألت عن شيء واحد لم تستطع الجواب، كما هو عليه، لأنك لم تحصل في التفصيل الجزئي، فافهم!.

* * *

منظر (التفصيل الجزئي)

في هذا المنظر تعلم حقائق الأشياء، كماهي عليه. فيكشف لك عن أمر الآخرة، والبرزخ، وكيفية الموت، وماهية هذه الأشياء، وما هي هذه العوارض، في هذه المواضع. وتتحقق بعلم أحوال الناس، فتعرف كلاً بسيماه، وأن المقام المخلوق، هو للقيام فيه، ليصير ذلك بإقامته فيه مقاماً، وفي أي طبقة من طبقات الجنة، أو درك من دركات النار، أو درجة من درجات القرب ـ يكون مستقره.

ويكشف لك في هذا المنظر: عن أحوال الملائكة، وأشخاصهم، وأنواعهم، وعباداتهم، وما هم عليه. وتعلم ما الفرق بين ملائكة التسخير، وملائكة العبادة، وملائكة المناظرة، وملائكة الاصطفاء، الذين هم المقربون. وتعلم الثمانية الذين هم حملة العرش يوم القيامة، ولِمَ هم الآن أربعة. وتعلم أسماء الملائكة: فلا يعرض عليك ملك، ولا إنسان، ولا جني، ولا شيء من الأشياء، إلا وتعلم اسمه بسيماه.

ولهذا المنظر ثلاثة مقامات:

المقام الأول: تقول أنت فيه للأشياء: أنك عينها! فتعطيها نفسك بالكلية. فإذا صدقتك بأن تقبضك إليها، أعطتك علومها على ما هي عليه.

المقام الثاني: وهو الأوسط: تقول لك الأشياء فيه: إنها هي عينك، فتعطيك نفسها بالكلية، فإذا قبضتها إليك، تصرفت فيها، فعلمتها على ما هي عليه، فلا يخفى عليك من أمرها شيء، إذا حققت هذا المقام.

ثم **المقام الثالث:** وهو أعلى ما يكون في هذا الباب. فيه تتحقق الأشياء، كما هي عليه، حق تحقيقها الغيبي، بالغين المعجمة. وفي هذا المقام لا تقول هي: أنك عينها. ولا أنت تقول أنت: أنها عينك. بل تشهدها في مقامها، على الحال الذي أوجدها الله تعالى فيه. فلا يفوتك شيء من أمرها، تجد ذلك مسطوراً مشهوداً.

آفة هذا المنظر:

هو أنك مع اطلاعك التفصيلي على حقائق الأشياء، لا ينزل من عالم غيبك، إلى عالم شهادتك، من العلوم الغيبية، إلا ما استشرفت إلى تفصيله في عالم الشهادة، فإذا توجهت إليه حصلت علمه عندك، على ما هو عليه. وقد تمر بالشيء وأنت جاهل له في عالم الشهادة، وقد حققته في عالم الغيب، فتعلمه ولا تعلمه، لأنك غير محيط به في محل الشهادة. وهذه هي الآفة، وهو موضع ظهور عجز المخلوقين، لا يحصلون فيه على غير ذلك. وما تمام الإحاطة، غيباً وشهادة، بسائر الموجودات إلا لله وحده، تفصيلاً وإجمالاً، جزئياً وكلياً. وهذا لا سبيل إلى استيفائه لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، لأن اللوح المحفوظ لا يحيط به على الإطلاق، وإنما يوجد في اللوح المحفوظ علم رقعة من الوجود، وهو: إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ويبقى ما وراء ذلك. ولله علوم في الخلق، وراء هذين المقامين: كعلوم التجليات، وعلوم الأسرار الإلهية، إلى غير ذلك، مما لا يسعه اللوح، ولا الملك، ولا الإنسان، بل هو من خصوصياته تعالى. وهذا هو الفرق بين مقام العز، ومقام العجز، فافهم!.

* * *

منظر (الإطلاق)

المطلق عبارة عن: من أطلقه الله تعالى في تجلياته، فلم يتقيد مع الله باسم، ولا صفة، بل هو مع الله تعالى بكل أسمائه وصفاته. وفي هذا المشهد: يكون لك التمكين في التلوين، فتتصف بما شئت من صفاته، وتتسمى بها. فأنت، إذاً، الحي العليم، المريد، القادر، السميع، البصير، المتكلم، إلى غير ذلك. فلا يقيدك اسم، ولا صفة، ولا تتقيد أنت، حينئذ، بفعل، ولا عمل مخصوص، بل أعمالك بحكم تجلياتك.

آفة هذا المنظر:

تقيدك بالمنظر الإطلاقي عن المنظر التقييدي. فأنت، إذاً، مقيد بالإطلاق. وأيضاً فالتلوين، الذي هو عبارة عن الاتصاف، هو من لوازم الخلق، لا من صفات الحق. فأنت، إذاً، مقيم في مرتبة النقص الخلقي، وليس ذلك شأن الكمال الإلهي. فالتغيير والتلوين من خصائص البشرية، وهي في الولي مشعرة بالبقايا.

* * *

منظر (التقييد)

التقييد بحكم ما يقتضيه التجلي، هو: من إعطاء الحقائق حقها. فصاحب هذا المشهد لا يقع في تجلٍ، إلا ويظهر على هيكله أثر ما هو فيه، بحكم تقيده بما يقتضيه مشهده.

آفة هذا المنظر:

هو أن أثر الأمور الباطنية، لا تظهر إلا على هيكل الضعفاء. وأما الأقوياء، فلا يظهر على ظواهرهم أثر مما في بواطنهم البتة: وذلك هو أن القوي لا يقيده مشهد عن مشهد، ولا منظر عن منظر، بل يكون في المشاهد كلها على ما ينبغي، وهو في مشهد مخصوص، يعطيه حكمة غير مقيدة.

* * *

منظر (الوصال)

الوصال، هو عبارة عن: دوام الوصلة بلا انقطاع، ولا فتور، فتتواتر تجليات الحق تعالى على العبد في هذا المشهد، من غير رجوع إلى النفس. فالوصال هو: لحوق العبد بالله تعالى.

آفة هذا المنظر:

هو أن الوصال مشعر بالغربة والإثنينية، والأمر منزّه عن ذلك. فالواصل محجوب، إذ لا وصول، لأنه لا فراق. وقد ورد عن بعض الشيوخ أنه قيل له: إن فلاناً يزعم أنه قد وصل! فقال: إلى سقر!. يريد أن الله لا نهاية له، فما ثمة وصول.

واعلم أن الوصال المعبر عنه بتواتر التجليات الحقية، لا يكون إلا في حق الضعفاء المحجوبين، وأما الكامل فإن ذاته منزهة عن تجلي صفات الغير عليها، بل هو المتجلي في ذاته بصفاته، فافهم!.

* * *

منظر (الفصال)

الفصال أعلى من الوصال، لأن الحق إذا فصلك عن تجلياته، أبقاك. وإذا وصلك بها، أفناك. فالفصال: هو التجلي بمقتضيات التجلي. والوصال: هو التلاشي، المعبر عنه: بالتخلي لورود التجلي. فالموصول فان، والمفصول باق.

آفة هذا المنظر:

هو استناد الأسماء والصفات الإلهية إلى ذاتك. وأنت لو اطلعت على حقيقتك الإلهية، فأنت أنت. ولهذا تجدها لك عياناً، ولا تقدر على إظهار أثرها، تصرفاً وبياناً. ومن هذا المشهد تترقى إلى التجريد.

* * *

منظر (التجريد)

المتجرد عن الأسماء والصفات، يكون هو في نفسه ذاتاً ساذجاً. فلا يكون بينه وبين ذات الله: واسطة اسم، ولا صفة.

آفة هذا المنظر:

هو ذلك التجرد عن الأسماء والصفات، ولا بد له منها: وذلك أن الله تعالى له أسماء وصفات، مستأثرات عنده، غير هذه، الأسماء والصفات، التي هي بين أيدينا اليوم. فإذا تجلى باسم أو صفة، من تلك المستأثرة، جهل العبد ذلك الاسم والصفة، إذا لم يكن كاملاً. فحينئذ يقول: أنه مع الله بلا واسطة اسم، ولا صفة. وهو معه بها، وهذا حجاب.

* * *

منظر (التفريد)

ينفرد العبد في هذا التجلي بحقائق الكمالات الإلهية، وهو من المشاهد اللاحقة بقوله، ﷺ: «لي وقت مع الله لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»[1].

آفة هذا المنظر:

هو احتجاب حقائق الأنبياء والأولياء، في هذا المشهد، الذي انفردت فيه بالكمالات الإلهية. ولو كشف لك عن حقائقهم، لما حصلت هذا المشهد.

* * *

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، برقم (٢١٥٩) [ج٢ ص٢٢٦]، والأبادي في عون المعبود (شرح سنن ابن ماجه) حديث رقم (٤٢٣٩) [ج١ ص٣١٣]، والمناوي في فيض القدير [ج٤ ص٦]. وأورده غيرهم.

منظر (خلع العذار)

يتجلى الحق تعالى على العبد بتجلٍّ، يقتضي حقيقة ذلك التجلي منه، أن يتحدى به فيظهر منه الشطحات في هذا المشهد.

وفي هذا المشهد: قبض الحلاج، رضي الله عنه. اجتمعت به، في غير هذا المنظر، وسألته عن سبب التحدي؟ فأخذ بيدي، وانصرفنا إلى هذا المنظر، فلما ولجناه، أقام به للتحدي. رفعني الله عن هذا المنظر، إلى فقر العبودية، فوقفت دون الحجاب.

وفي هذا المنظر تحدى كل ولي يتحد:

- فمنهم من خلع العذار في ذلك التحدي: كالحلاج، وعين القضاة.

- ومنهم من رفع العذار، ولم يخلعه، كالشيخ عبد القادر الكيلاني، وكأبي يزيد، وأبي الغيث بن جميل، رضي الله عنهم أجمعين، وغيرهم من الأولياء.

آفة هذا المنظر:

هو أن هذه الدار ضيقة على ظهور الحقائق الإلهية التي يتحدى بها الولي، فلا يسعها إلا الدار الآخرة. وتحديه إنما هو استعجال أمر مؤخر، فهو من قبيل وضع الشيء في غير موضعه، ولا يكون ذلك إلا عن نقص، فإن الحكمة الإلهية بخلافه. وأيضاً فإن هذه الدار محل التزيد والتحصيل، وبالتحدي يزول التزيد والتحصيل فيفوته أمر خطير كثير. ما زاد حتى أتى بتقديم ما هو له. ولا فائدة في ذلك، ولهذا قال أكمل كمل أهل هذا المقام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠] [فصلت: ٦].

* * *

منظر (ستر الحال بالحال)

ستر الحال بحال، هو دأب المحققين، وهم المسمون بالملامتية لا غيرهم. يتلونون مع كل طائفة، بما يصلح أن تكون تلك الطائفة عليه. وهم متمكنون في الحضرة الكمالية بما تقتضيه شؤون الذات الإلهية. فيتلبسون بملابس أحوال العوام معهم، ويعاملونهم بما يعامل بعضهم بعضاً. فلا يظهر على هياكلهم المظهرة أثر مما في بواطنهم بحال. فهم الأدباء الأمناء.

آفة هذا المنظر:

هو النزول عن الحق إلى الخلق بالحق. هذا المشهد، ولو كان من جملة الكمالات الإنسانية، فليس هو من جملة الكمالات ارحمانية، وذلك هو المطلوب. فالوقوف مع الكمالات الإنسانية حجاب، لأن الله بخلاف ذلك.

* * *

منظر (التلامت)

يتجلى الحق تعالى على العبد، في هذا المشهد، بتجلٍ تتغرب فيه أحوال العبد على الخلق. فلا يظهر منه فعل ولا قول، ولا يكون على حال، إلا وهو موجب لملامتهم عليه، لأنه قد بعد عليهم فهم ما هو عليه، فلاموه فيما لم يوافق مرادهم من أمره، جهلاً بحاله، وليس في أمره موافقاً لهم. فهم يلومونه تارة بحكم النقل، وتارة بحكم العقل، وتارة بحكم العادة. فهؤلاء، ولو كانوا ملومين، فليسوا الذين نعني بالملامتية الأدباء الأمناء.

آفة هذا المنظر:

ظهور حكم ذلك التجلي الذي تغرّبوا به عن الناس، فبرز حكم بواطنهم على أجسامهم، حتى صدر منهم ما صدر، مما أوجب الملامة عليهم، فهم ضعفاء لظهور أثر ذلك في ظواهرهم. ولهذا نزلوا عن درجة الأمانة، التي اختص بها الملامتية: الأمناء، الخلفاء، الذين هم محل نظر الله تعالى من هذا العالم. وإن صدقت فراستي، فمنهم سيدي الشيخ شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي، نفع الله به، ولا نعلم أحداً ممن أدركناه على طريقه، فهو غريب الأولياء.

* * *

منظر (التصوف)

الصوفي: من صفا من كدورات البشرية، بأسماء الحق، وصفاته، وذاته، فهو مصفى مما سوى الحق تعالى. ولهذا قال بعض المتقدمين من مشايخ العجم: الصوفي هو الله. يريد أن مجلى الحق تعالى على قلب الصوفي، من حيث الألوهية، لا من حيث ما تحتها من الأسماء، فهو أعلى تجليات الحق، فيما يمنحه عباده.

ولقد روى لي من أثق بروايته، عن النبي ﷺ، أنه قال: «الصوفي هو الله»[1].

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قلت: لعله اسم كالولي، يقع على الله، ويقع على العبد. ومن ثم قال شيخنا: (التصوف كله خلق). يعني الأخلاق الإلهية. فالتصوف هو التخلق بها.

آفة هذا المنظر:

هو أن التخلق والاتصاف تعمل، ولا يكون إلا للغير، في صفات الغير، وهذا حجاب.

* * *

منظر (التزندق)

يتجلى الحق تعالى على الولي بتجلٍ مخصوص، يظهر أثره عليه، بحكم الغلبة. فيزندقه كل من يراه، أو يسمع به، أو يعلمه في تلك الحالة. ومن ثم قال الجنيد: (لا يكون الصدِّيق صدِّيقاً، حتى يشهد له في حقه سبعون صدِّيقاً، أنه زنديق). فهم يشهدون على ظاهره بما ظهر من حاله. لأن الصدِّيق يعطي الظاهر حكم الظاهر، ويعطي الباطن حكم الباطن، فلا يلتبسون بالباطن على الظاهر، ولا بالظاهر على الباطن. فهم يشهدون أنه زنديق ظاهراً، كما يعلمون أنه صدِّيق باطناً، لتحققهم بذلك الحال في نفوسهم.

ومن ثم قيل للفقيه حسن بن أبي السرور: لو كشفنا للخلق عنك لرجموك! فقال: ولو كشفت لهم عن رحمتك لما عبدوك! فقيل له: يا حسن! لا تقول، ولا نقول!.

يريد بقوله: «لو كشفت لهم عن رحمتك» إظهار سر الربوبية لقول سهل بن عبد الله، إن للربوبية سراً لو ظهر لبطلت الربوبية والمراد بقوله: «لو كشفنا للخلق عنك لرجموك» هو إظهار حقيقة ما هو عليه قلب الولي. فإن الخلق لو عرفوا الولي بذلك لرجموه، وزندقوه، وكفروه. ومن ثم قال زين العابدين شعراً:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

آفة هذا المنظر:

أن من ظهر عليه، بحكم الغلبة أثر ما تجلى به الحق عليه باطناً، فهو ضعيف، غير متمكن، لأن القوي لا يغلبه غالب، والمتمكن متصرف بالاختيار. فمن ظهر عليه الأثر بحكم الغلبة، فهو محجوب، والمحجوب ناقص عن درجة الكمال.

* * *

منظر (الوقوف مع المراسم)

الوقوف مع المراسم: هو سريان الولي في أفلاك الأسماء والصفات، إلى أن يقف عند مقتضى كل اسم وصفة، بما هي عليه من الذات المقدسة.

وفي هذا المنظر: يعلم الله عبيده الأولياء كيفية الاتصاف بالأسماء، والصفات، فيظهرون بها بين خلقه، تخلقاً وتصرفاً.

آفة هذا المنظر:

هو ذلك الذهاب في حقائق الأسماء والصفات الذي عبّر عنه بسريان الولي في فلك الأسماء، وليس هذا من شأن صفات الحق تعالى، فإن الله تعالى منزّه عن الذهاب والإياب، ووصف العارف وصف المعروف، فالكامل منزّه عن ذلك.

وفي هذا المنظر: لو قطع الولي، إرباً إرباً، ليظهر أسرار الله تعالى، لما فعل، لوقوفه مع المراسم. وصاحب هذا المنظر، لا يصدر منه ما ينكره الشرع، ويخله العقل، ولا ما تستبعده العادة.

* * *

منظر (الكفر)

لا بد للموحد أن يمر على قنطرة الكفر، في ترقيه إلى حقيقة التوحيد، وإلا فلا توحيد وصل. ألا ترى إلى كلمة التوحيد. إن وقفت على النصف الأول منها، كان كفراً، فلا يجوز أن تقول: «لا إله» وتقف عنده، ولا بدمن قوله مردوفاً بـ«إلا الله». فما وصلت إلى كلمة التوحيد إلا بعد كلمة الكفر. إذا كان هذا في الظاهر، فما قولك في الباطن، والظاهر عنوان الباطن. ومن ثمة، قال الحسين بن منصور الحلاج، رحمه الله، لبعض تلامذته: (كشف الله عنك شر الكفر، فإن فيه حقيقة الإيمان. وحجب عنك سر الإيمان، فإن فيه حقيقة الكفر).

يتجلى الحق تعالى على العبد، في هذا المنظر، بتجلٍ يستتر عنه حقائق ما يجب الإيمان به لظهور سبحات الجمال. فيقال: كافر، بمعنى: ساتر. وإلى هذا التجلي أشرنا في قولنا: «لا بد للموحد أن يمر على قنطرة الكفر» فافهم!.

آفة هذا المنظر:

هو ذهوله بأنوار السبحات، واشتغاله بها، عن حقائق ما يجب الإيمان به. فإن الذهول لازم للضعيف، ولولا الحجاب، لما كان عنده كفر، ولا إيمان.

* * *

منظر (الإيمان)

للإيمان منظر من تجلى الله تعالى عليه به، أدرك به سائر العلوم والأسرار، ووصل إلى سائر المقامات العلية، وقطع به سائر المنازل، بنفس واحد. فلا يفوته علم ما يورده عليه، بأي طريق أورد به عليه، ولا يتغرب عليه حكمه، ولا صنيعه، ولا عمل. فيكاد أن يحيط بتفاصيل الأشياء لسعة فلكه، ووفور حظه من الله تعالى. وكنت قد سطرت كلمات في هذا المنظر، من قبيل ما يجده صاحب هذا المنظر، وأسندته على حسب ما فتح الله به علي، فيما بيني وبينه تعالى. فوجدت هذا لا يكاد العقل يقبله، وربما علمت به نزاعاً من بعض علمائنا في ذلك. فاستخرت الله تعالى، وعزمت على ذلك، وعلمت أن الله تعالى لم يكتم ذلك، إلا غيرة عليه ممن ليس من أهله. وجملة حاصل ما كان غرضي أن أثبته، في هذا المنظر، هو أن يعلم أن الله تعالى جعل هذا المنظر هيولى سائر المناظر. فجعل له هيمنة على المناظر الإلهية. فمن تجلى عليه في هذا المنظر وحصل له كمال الإيمان، لا يحجب عنه سر، ولا يرد له أثر، وكان هو الإنسان الكامل، المحيط بالأواخر والأوائل. ولهذا قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن»[١]. ولم يقل: «اتقوا فراسة المسلم»، ولا «فراسة المحسن». لأن الإيمان نور الله. ولهذا قال: «.. فإنه ينظر بنور الله»[٢].

آفة هذا المنظر:

هو أن الإيمان متعلق بالغائب، والغائب محجوب عمن غاب عنه.

* * *

منظر (الإحسان)

يتحد البصر بالبصيرة، فيشهدك الحق تعالى أنوار عظمته ساطعة على الوجود، فيأخذك الصعق، فحينئذ تبدو عليك شموس الجلال، وأقمار الجمال، من فلك الكمال، على وفق مقتضى الحال، مما لا يدخل تحت المقال. فتشهدها ببصيرتك، كأنك ناظر إليها بالبصر، لاتحادها بقوة أحدية نور اليقين.

---

(١)، (٢) رواه الترمذي في جامعه الصحيح، باب ومن سورة الحجر، برقم (٣١٢٦) [ج٥ ص٢٩٨ والطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٣٢٥٤) [ج٣ ص٣١٢] ورواه غيرهما.

آفة هذا المنظر:

اتحاد البصر بالبصيرة، وهي حجاب، لأن الشيئين لا يصيرا شيئاً واحداً إلا في المجاز، وعلى المحجوب يفوت ذلك.

* * *

منظر (الشهادة)

الشهيد من فتكت به سبحات الجمال والجلال، فأفنته عنه: فهو مقتول في حركة صدمات التجليات، أخرس لا ينطق، أعمى لا يبصر، ميت لا يحيى. أولئك الممحوقون بعد السحق، مطموسون بعد المحق. لا يرجعون إلى أنفسهم، ولا إلى الله تعالى. بل ليسوا شيئاً مذكوراً.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابهم بالحق عن الخلق. ويخشى على صاحب هذا المنظر فوات الشرائع.

* * *

منظر (الصديقية)

هو مقام وجودك حقائق الأسماء الإلهية، والصفات الربانية، منك فيك، كما كشف الله تعالى: علماً، وعياناً، وتحقيقاً.

آفة هذا المنظر:

قصوره عن إعطاء الأسماء والصفات حقها، بما يقتضيه حقيقة معانيها، تصرفاً وتوصفاً. لأن العبد، وما يلحق به، لا بد أن يكون له نهاية. فلو حصل من الاتصاف، ماذا عسى أن يحصله، فإن الله تعالى من وراء ذلك، مما لا نهاية له.

* * *

منظر (القربة)

يتجلى الله تعالى على عبده، في هذا المنظر، بتجلٍ يستقدر به على إظهار آثار الأسماء والصفات فيظهر على هيكله، كل عضو بما يستحقه، مثلاً: فالرجل للخطوة واللسان للكلمة، وأمثال ذلك من سائر أعضائه.

آفة هذا المنظر:

عجزه عن استيفاء ما اتصف به، مما في مطاوي الأسماء والصفات، فلا يظهر على الهيكل إلا قطرة من نهر، أو موجة من بحر، لأن الحكمة اقتضت ذلك. فكما أن دار الدنيا لا تسع ظهور الحق تعالى، كمال الظهور، كذلك جسم الإنسان لا يسع ظهور آثار جميع ما يتصف به هو من الله تعالى في باطنه، فيعجز عن إظهار ذلك الكمال على جسده من مقتضياته حتماً مقضياً. ولولا ذلك، لما مات.

* * *

منظر (العبودية)

يرجع العبد من الحق، إلى الخلق، بالحق، في هذا المشهد، وقد تمكن من التصرف بحقائق مقتضيات الأسماء والصفات. فيقف بعد الكشف، دون الحجاب. وما كل من رجع من الحق إلى الخلق، يرجع من هذا المقام.

آفة هذا المنظر:

ذلك الرجوع إلى الخلق، ولو كان بالحق، فإنه رجوع من العالم الجبروتي، إلى العالم الناسوتي. ولكن فيه لطيفة، وهي لتحقيق المقام الإلهي، في هذا العالم الجسماني. ولولا القصور والحجاب لما طلب ذلك التحقق.

* * *

منظر (الهداية)

من أقامه الله في هذا المنظر، يشهد المعاني والأحكام، صوراً وجودية عينية، فلا يعتريه تسهيل في الأمور الإلهية، ولا تأخذه فترة عن الترقي في الكمالات الإنسانية.

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، على قلب عبده، بتجلٍّ يقيمه في سنن صراط الله، فيتصف بما وصف الله به. وكلما فقد شيئاً، تجلى الله عليه بتجلٍّ يعلمه ما فقد من تلك الكمالات الإلهية، فيستعد لذلك بطلبه. ثم يتجلى الله عليه، فيوجده ما فقده. ثم يفتقد العبد ذاته، فيجده فقد شيئاً من صفات الله تعالى، فيتجلى الله عليه بتجلٍّ يعلمه ما فقده. ثم يستعد لذلك، فيتجلى الله عليه بتجلٍّ يوجده ما كان فقده. هكذا لا يزال صاحب هذا المقام، في هذه التجليات، إلى ما لا نهاية له. ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٨].

آفة هذا المنظر:

ذلك الفقدان، الذي يحصل الوجدان بعده، ولولا ذلك الفقدان لما اهتدى. وليس ذلك من صفات الكمال الإلهي، والشأن الذاتي. فالحجاب لازم لمقام الهداية أصلاً.

* * *

منظر (البداية)

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، على قلب العبد، بتجلٍّ يعيده إلى المحل العلمي الإلهي، الذي بدأ منه، إلى العالم العيني. فلا يكون لهذا العبد، في العالم العيني، وجود البتة، بل يفنى سائر وجوده، ويضمحل تركيبه، ويذهب في الذاهبين. فيرجع إلى المحل العلمي، فلا يكون موجوداً إلا في علم الله وحده، لا يعلمه غير الله تعالى، ولا يعلم هو نفسه، ولا يعلمه غيره. بل ينقطع وجوده من عالم الأكوان، انقطاعاً إطلاقياً، فلا يوجد إلا في علم الله. ذلك هو الولي الغائب عن وجوده، والوجود غائب عنه، فلا يعرف من هو، ولا يفهم أحد ما يقول، ولا يعلمه إلا الله تعالى.

آفة هذا المنظر:

تلك الغيبوبة، وذلك الفناء، اللذان ليسا هما من وصف الله تعالى. ولولا الحجاب، لما كان هذا العبد موصوفاً بهما.

* * *

منظر (النهاية)

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، على قلب العبد بتجلٍّ، يعرف فيه قدر الله تعالى، فيشم رائحة من الكمالات الإلهية، فينزل عندها بالعجز عن أداء حقوق الكمال. فنهاية العبد رجوعه إلى العجز الكلي: سبحانك! ما عرفناك حق معرفتك، لأنا عرفنا أن لك معرفة مخصوصة، لا يجوز لعالم التركيب أن يعرفوك بها. ونحن من عالم التركيب، فعرفنا أنا ما عرفناك حق معرفتك.

يشهد الحق تعالى عبده، في هذا المنظر، كمالاته، في مقام العندية، بالنون، ثم يرسله إلى عالم التركيب، فيقول له: صف ما رأيت، وائت بما علمت! فيقول: «لا

أحصي ثناء عليك»[1]، لأن مقام التركيب لا يسع ظهور ما هو في مقام العندية، بالنون. «أنت كما أثنيت على نفسك»[2]، مما علمتنيه، وأشهدتني إياه عندك، أنه لك، فلا يكون ظهور ذلك بكماله، إلا في مقام العندية، وهو لك. وأما مقام التركيب، وعالم الكون، فلا يسع ذلك، إذ لا قابلية له به. فيرجع العبد إلى الاعتراف بالعجز ضرورة، وذلك نهايته.

آفة هذا المنظر:

هو ذلك العجز المنافي لوصف الله تعالى، فلولا الحجاب لما كان عاجزاً.

* * *

منظر (الغاية)

أنت غاية كل غاية، ونهاية كل نهاية، وحقيقة كل مقصود، وبك وجود كل موجود. فلا تخرج عنك، ولا تتشوف إلى غير حالتك، وقل: تعاليت يا من لا نهاية له! وهو غاية كل غاية، فسبحان الكبير المتعال.

يتجلى الله تعالى، على قلب العبد، في هذا المشهد، بتجلٍ يرى ما لا يدركه، ويجد ما لا يعرفه، ويعرف ما لا يراه. فيفوته الضبط، ولا يستقر عنده وجود، ولا علم، ولا رواية، ولا رؤية، ولا إدراك: فيقول: ما يدري ما يقول، ويرى: ما يدري ما يرى. ويفوت عنه: ما يدري ما يفوت عنه. فيسمع من كل جهة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾ [الصَّافات: ١٨٠]. ويجيب، بكل لسان: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

آفة هذا المنظر:

عدم الاستقرار، الذي هو الاستيلاء، وهو مناف لصفات الكمال. فلولا النقص، لما فاته ما فاته، ولا بد من ذلك الفوات، لأن الله تعالى لا نهاية له.

* * *

(١)، (٢) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٦) [ج١ ص٣٥٢] والحاكم في المستدرك برقم (١١٥٠) [ج١ ص٤٤٩] ورواه غيرهما.

منظر (الجمال)

تتنوع تجليات الحق تعالى، في منظر الجمال: فتارة يتجلى باللطف، وتارة بالرحمة، وتارة بالعلم، وتارة بالفضل، وتارة بالجود، وأمثال ذلك، إلى ما لا نهاية له من تجلياته.

ثم إن تجليات الله تعالى على قلوب عباده كلها: إما جمال الجلال، وإما جلال الجمال. وقد أوسعنا القول في هذا المعنى، في كتابنا الموسوم بـ(الإنسان الكامل).

واعلم أن الله تعالى، إذا تجلى لعبده، في منظر الجمال، رأى ذلك العبد جميع الأشياء ملحقة بالله. فلا يمر بحجر، ولا مدر، ولا حيوان، ولا شيء من الأشياء، إلا وتلوح له تجليات الجمال من تلك الأشياء، بلا حلول، ولا اتحاد، بل على التنزيه اللائق به. وذلك لأن الله تعالى يكشف له عن محتد الموجودات، فلا يمر بموجود إلا ويكشف له عن محتده، من جمال الله تعالى.

وفي هذا المنظر: يسمع العبد من الله، تعالى، آية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥].

صاحب هذا المنظر: يكون عنده علم توحيد الحق في سائر المخلوقات، وترد عليه ملائكة الحقائق بأنواع علوم التوحيد، في هذا المنظر. فلا تزال تهديه إلى الحق تعالى، حتى يترقى عنها، وعن نفسه، وعن علومها. فينفى عن جميع ذلك، ثم يفنى عن الفناء، ثم يبقى ببقاء الله تعالى. فإذا صار باقياً بالله، شمّ رائحة من الجلال، فينتقل من منظر الجمال، إلى منظر الجلال.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بالجمال عن الجلال.

* * *

منظر (الجلال)

يتجلى الحق سبحانه وتعالى على العبد، في هذا المنظر، بصفات القهر والكبرياء والعظمة والقدرة والجبروت، فيندك جبله، وتصعق نفسه، فيقع في بحار من الهيبة، تتلاطم أمواجها بالنار.

وفي هذا المشهد: يسمع العبد صلصلة الجرس. وأول بدؤه في الكشف، في هذا المنظر، يسمع تصادم الحقائق، بعضها مع بعض، فيجد لها أطيطاً، يملأ ما بين السماء والأرض. ثم إذا تقوى، وثبت لسماع ذلك، يترقى ويسمع صلصلة الجرس، عند رفع الستر عن الصفة القاهرية.

وفي هذا المنظر: يتصف الأولياء بالصفة القادرية، فيخترع الرجل منهم ما شاء من عجائب القدرة، والتكوينات التي لا يسع شرحها. وما دام العبد في تجليات الجلال، فإنه لا يمكنه أن يبرز شيئاً من عالم غيبته إلى عالم شهادته، لأن عالم الشهادة يضيق عن حمل ذلك. فلا تكون اختراعاته، وانفعالاته، وخرقه للعوائد، إلا في عالم غيبه، حتى ينتقل من هذا المنظر، إلى منظر الكمال، فتتنزل حقائقه، من سره إلى روحه. ثم تفيض روحه على قلبه، ثم يفيض قلبه على نفسه، ثم تفيض نفسه على هيكله. فتبرز آثار ما اتصف به في عالم شهادته، على التدريج والحكمة، لأن دار الدنيا دار حكمة، فلا تبرز تلك الأشياء فيها، إلا على طريق الحكمة، في القالب الإنساني.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بالجلال عن الكمال.

* * *

منظر (الكمال)

يتجلى الحق تعالى، في هذا المنظر، على العبد بأسماء المرتبة، فيكشف له عن التجلي الرحماني من فوق عرش الربوبية، فيتصف بصفة الاستواء.

في هذا المنظر: تتعشق الأمور الكمالية بالعبد، تعشقاً ذاتياً، فتكون ذاته مستوعبة للكمالات، من حيث اقتضاءاتها، فلا كمال، ولا جمال، ولا جلال، ولا نعت، ولا صفة، ولا أمر علي، ولا مشهد جلي، إلا وهو مضاف إلى صاحب هذا المنظر.

وفي هذا المحل: يعطى العبد من مفاتيح الغيب، التي هي عند الله تعالى، على قدر قوة قابلية روحه، وتحققه فيما اتصف به. لأن هذا العبد قد صار في مقام العندية، بالنون، ومن كان عند الله في هذه العندية، آتاه الله تعالى ذلك، كما فعل مع نبيه، ﷺ، حين أتاه جبريل بمفاتيح خزائن الأرض، فاختار الفقر. ومفاتيح خزائن الأرض من جملة مفاتيح الغيب، لأن خزائنها غيب.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بتجليات اسم المرتبة، عن التجلي الذاتي المخصوص بالله تعالى.

* * *

منظر (الاستواء)

في هذا المنظر: يستوي اتصاف العبد بصفات الله تعالى، واتصافه بصفات نفسه، فلا يجد في شيء منها تكلف، ولا يحتاج إلى تعمل. فيكون في أوصاف الله تعالى، كما هو في أوصاف نفسه: يتصف بما شاء، فيظهر أثره، ويترك ما شاء، فيظهر أثره، ويترك ما شاء، وهو له، فيخفى أثره.

آفة هذا المنظر:

عدم الاستيلاء.

* * *

منظر (الاستيلاء)

إذا استولت الصفات الإلهية، والأسماء الذاتية، سائر العبد، بأن يتحقق جسمه، الذي هو هيكله، بما هو متحقق به في روحه ـ فقد ستعد لهذا المنظر.

وفي هذا المنظر: من العجائب والغرائب، ما لا يسع شرحه، مما يؤتاه الولي. فيكون جسمه له حكم، حقيقته: ما لروح غيره من العارفين.

وهذا المشهد هو المسمى بالتجلي الرحماني، وهو في الإنسان نسخة ما في الوجود، من آيتي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝﴾ [طه: ٥، ٦]. حينئذ يستولي حكم الحق تعالى على العبد، فلا يبقى لبشريته أثر. ذلك هو الولي، الذي يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

آفة هذا المنظر:

عدم استيفاء ظهور كل ما تحققت به روحه على جسده. فإن إتمام ذلك غير ممكن البتة، فلا بد من نقص الجسد عن درجة الروح. ولا بد من نقص درجة الروح عن درجة مطلق الكمالات الإلهية، وهذا حجاب، ونقص، فهو آفة هذا المقام.

* * *

منظر (اللذة السارية)

يتجلى الحق تعالى بتجلٍّ يكشف فيه للعبد بمكانه من الحقائق الإلهية، فيظهر له من الله ما لم يكن يحتسب، ويؤتى من التحف والطرف ما لا يخطر على قلب بشر: فيجد ـ لوجود تلك المعاني الإلهية، بكشف عوالمها من نفسه ـ لذة سارية، في جميع أجزائه، مستولية على جوارحه وأعضائه، إلى أن يغشى عليه من قوة تلك اللذة، وهي لذة محسوسة، موجودة. غير أنها منزّهة عن أن يماثلها، أو يقرب منها، شيء من لذات الدارين.

غيبت في هذا المنظر عن العالم الكوني، فكشف لي عن عوالم الأسماء والصفات، وكيفيتها، في عالم ذاتي. ووجدت كل ذرة من وجودي، حاملة من المعارف الكمالية، ما لا يمكن شرحه. فأعطتني عوالمي كل اسم، وصفة، ومعنى، ومرتبة، ما لا نهاية لها. فلما وجدت ما وجدت، سرت فيَّ لذة إلهية، حتى ذقت أمراً محسوساً، تكاد الروح أن تذهب لوجدانه. فلما رجعت إلى عالم الأكوان، حدث فيَّ حادث، وكنت يومئذ مبتدئاً في هذه الطريق، فلزمني البدء، أن أعرض قصتي على رجل كنت أعرفه، من أهل الله تعالى، فلما عرضت عليه أمر الحادث، فقال لي: إن حصول الحادث لوجود بقية بشرية، ولكنه علامة صحة هذا المشهد.

آفة هذا المنظر:

تلك اللذة، فإنها تأخذ العبد إليها بالضرورة. وأسباب العبد إليها، بحسب الضرورة، نقص. لأن المضطر ينافي القدرة الإلهية، التي هي صفة العارف. وذلك حجاب لازم، وهو من أجل بقية بشرية، وهي التي أشار إليها الرجل، رضي الله عنه، في تربيته لي فلا يتوهم متوهم، أن من وجد تلك اللذة، ولم يحدث به ذلك الحادث، كان أكمل ممن وجده، ثم حدث به الحادث، لأن البقية لازمة للذة تلك. ولا يوصل إلى تحقق مقام تلك اللذة، إلا بذلك الحادث، فمن لم يحدث به ذلك الحادث، لم تتم له اللذة، بل ما عنده إلا طرف منها. لأن اللذة المستولية عليه، إذا عمّت الحس، وأخذت صاحبها بكليته، لا يجد بداً من أن يمني. ولهذا وجب الغسل على الميت، لأن الروح إذا أخذت في عالم الملكوت، واتسعت من هذا المضيق الجسماني، تجد لذلك لذة كلية تسري في هيكله، آخر نفس في النزاع، فلا يجد بداً من أن يمني. فلهذا أوجب الشارع غسل الميت، حتى أن من لم يبلغ الحلم، لا بد أن يخرج منه، عند موته، شيء يكون بمنزلة المني من غيره.

* * *

منظر (الكشف والعيان)

ينفتح للعبد، في هذا المنظر، حول عينه: دائرتان:

إحداهما: تسمى دائرة العين الصغرى، فيها يرى المحسوسات، من وراء كثائف الحجب الحسية، أشخاصاً معينة. فلا تحجبه الجدارات، ولا البُعد، ولا شيء من ذلك.

الثانية: تسمى دائرة العين الكبرى، فيها يرى البرزخ، والملكوت، وعوالم الأرواح، ويطلع على الجنان، والنيران، وأنواع النعيم، والعذاب، ويعرف أجناس الملائكة، وفي أي وظيفة أقام الحق تعالى كل نوع من هذه الملائكة، وتخاطبه الروحانيات، بما فيها من الأسرار الإلهية، ويلقى إليه من سؤالات العلوم اللدنية، وأجوبتها، إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بمنظر العيان والكشف، عن منظر الوجدان والشم. فإذا أردت الفرق ما بين المنظرين، فتأمل الدائرة الصغرى، كيف هي حاصلة لكل ما ينتقل من الدنيا إلى البرزخ. فإنه إذا صار السالك من عالم الأرواح، لم تحجبه المحسوسات مع كثائفها، بل يشهد البعيد، كما يشهد القريب: فما زاد صاحبها بأن ضيّع حاصل وقته، بالوقوف مع اجتلاب ما لا بد من الله حصوله.

وأما الدائرة الكبرى، فملحق بالثانية، لأن الشخص إذا انتقل من البرزخ، إلى الجنة، أو النار ـ وجد تلك الدائرة بعينها. فما زاد صاحبها إلا بأن حصل الحاصل، وليس مطلوب أهل الله تعالى، إلا العلم بالله تعالى، وبه يعلم الأشياء شماً ووجداناً. وسيأتي بيان ذلك في المنظر التالي.

* * *

منظر (الستر)

يتجلى الله تعالى، على العبد، بتجلٍّ تستتر عنه سائر العوالم الكونية، فلا يعلم للأكوان علماً. فهو كأحد عوام الناس في الاطلاع على الأشياء، لا يعلم ما تحت جنبيه.

وفي هذا المنظر: قال سيد أهل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩].

آفة هذا المنظر:

في حقنا، لا في حق النبي ﷺ، هو اشتغالنا بالحق عن الخلق.

* * *

منظر (الشم)

يتجلى الحق تعالى على العبد، في هذا المنظر، بتجلٍّ يعلم به، من العلم الخاص بالله، على قدر قوة قابليته. وهذا العلم هو الحاصل بطريق الوجدان، والشم، فلا يسمى عياناً ولا كشفاً، إلا على سبيل المجاز. وأما على الحقيقة: فليس هو إلا وجدان، وشم، ويقين، وعلم.

وفي هذا المنظر: يعلم أحوال الممكنات، بما هي عليه من المقتضيات، والشؤون والتقلبات، ولا يعزب عنه أمر يريد كشفه.

آفة هذا المنظر:

هو أن هذا العلم الحاصل لا يتفق لأحد، على سبيل الشمول، والحيطة، إلا في العالم الغيبي، من حيث الشأن الإلهي العلمي، ولكنه لا يفصل في عالم الشهادة إلا نبذة منه، ولا يمكنه الاستيفاء بوجه من الوجوه. وذلك نقص، لأن الله تعالى صفته أن غيبه شهادته، وشهادته غيبه، ولا يفوته علم شيء من ذلك.

* * *

منظر (الحضائر)

لله عباد سماهم (أهل الحضائر) قد تجلى عليهم بتجليات متعينة، أكسبتهم تلك التجليات: معارف آداب الدخول في الحضرات، فإذا أراد أحدهم دخول حضرة الحق تعالى، استحضر تلك المعارف، وتأدب بآدابها، فيفتح له باب إلى حضرة الحق تعالى، فيقف بين يدي الحق، بما شاء الله تعالى. وهؤلاء هم نوع من العارفين، يخرجون عن محاضرهم الإلهية، لمصالحهم الخلقية. فإذا فرغوا منها، رجعوا إلى الله تعالى، ودخلوا حضرة الحق تعالى. قد جرت سنّة الله تعالى، أن لا يمنعهم الدخول، متى شاؤوه. فهم مأذون لهم بالدخول والخروج إلى حضراتهم المخصوصة بهم، لا إلى ما فوقها.

وقد شاهدت طائفة من هذه الطبقة، منهم: أخونا العارف، لسان المعارف (أبو بكر بن محمد الحكاك) رحمه الله تعالى. وأعرف من أولياء زماننا هذا جماعة، هم في هذه الطبقة.

آفة هذا المنظر:

ذلك الاستحضار لتلك المعارف، ليتأدب بما هو في مطاويها. وهذا نقص، لأن الولي حاضر، لا مستحضر، أديب، لا متأدب. والاحتياج إلى الاستحضار عجز وحجاب.

* * *

منظر (الخلع والمواهب)

في هذا المنظر، تعرف مراتب الأولياء فمنهم: من ولايته من حيث المواهب الإلهية، بحكم ما يورده الوقت والحال.

ـ ومنهم من ولايته من حيث الخلع، بحكم ما تقتضيه الصفات الذاتية. وهم أخص، وأعلى، من أهل المواهب والمنح:

ـ فإن تجليات الحق على أهل المواهب: سكرة من شراب ممزوج.

ـ وتجليه على أهل الخلع: صرف.

ـ فأهل الخلع: أهل عين التسنيم وهو الكافور يمزج منه لأهل المواهب.

ـ وأهل المواهب: هم الذين يشربون من الممزوج، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥].

فأهل المواهب والمنح لا توجد عندهم هذه الخلع. وأهل الخلع، توجد عندهم المواهب والمنح. وخلعة كل ولي كامل: صفة إلٰهية يتلبس بها، ويكون الأغلب على حاله، أثر تلك الصفة: كصفة القدرة، كانت خلعة الشيخ عبد القادر الجيلاني، لغلبة ظهور أثرها عليه.

وكما كانت صفة العظمة والهيبة غالبة على أحوال الشيخ أبي يزيد البسطامي. وكصفة العلم الذي كان غالباً على أحوال سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي، رضي الله عنهم أجمعين.

آفة هذا المنظر:

صرف الوقت بجهة من الحقائق، دون الحيطة، والجمع الذاتي. فإن صاحب المنظر الكمالي، لا يغلب على حاله، إلا ما اقتضاه شأن الحق في ذلك الحال. فلا يظهر عليه صفة، ولا اسم، بل يكون أثر الله تعالى ظاهراً عليه، في كل وقت، بما يقتضيه الوقت. وهؤلاء هم أهل المراتب، ولذلك كانت صفة الكمال ظاهرة على سيدنا محمد، ﷺ، بما نهى وأمر، وأخبر، واخترق العادات، وهدى، وقطع، ووصل. ولم يختص بظهور شيء دون شيء، بل ظهرت عليه آثار سائر الكمالات، فبذلك استحق التقدم على سائر الأنبياء والأولياء. وليس على هذا القدم الكمالي المحمدي، إلا آحاد الآحاد، من الأقطاب والأفراد. أولئك أهل لواء الحمد، يحشرون مع النبي، ﷺ، تحت ذلك اللواء، هم ومن كان على هذا القدم، من الأنبياء والأولياء. ولا يعرف ذوق ما قلناه إلا الغرباء.

* * *

منظر (الأسرار)

السر الذي بين العبد وبين الرب، مما أشار الحديث النبوي إليه أنه: «لا يطلع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»[1] هو ذات العبد، وهيئته، وما فيها من مقتضيات شؤونه الإلهية، التي ليس للمخلوق أن يعلم كنهها، وماهيتها. فلا يعلم ما هو إلا هو، فلا يعلم ملك مقرب، ولا نبي مرسل: ما ذلك الشيء. ويعلم العبد الذي هو سره لأن الله تعالى قد جعله مظهراً لذلك، فهو قابل لعلمه، إذا أعلمه الله تعالى. فمن الناس من يعلمه، ومن الناس من لا يعلمه. وكل تحفة، أو سر طرفة، أو خلعة، أو موهبة، أو ولاية، يشرف الله بها عبده ـ فإنها جميعها مما قد جعله الله تعالى، من الأزل، في سره. فلا يحصل للعبد خبر، بمعنى من المعاني، ولا في وقت من الأوقات، إلا مما قد جعله الله في سره من الأزل. فلا عنده، إلا مأمنه، ويبقى ما هو لله تعالى، من وراء ما هو سر هذا العبد، لا يعلمه إلا هو.

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (١٧٦٥) [ج٢ ص٨٩]. والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب برقم (٣٤١٠) [ج٢ ص٣١٢] وأورده غيرهما.

آفة هذا المنظر:

قصور العبد على ما هو عنده من السر الإلهي، عما هو لله خارجاً عن مودع سره. فبنفسه، احتجب عن ربه، وهذا نقص. ولقد أشم رائحة من وراء هذا السر، لا يحل نشرها، إذ لا يمكن بثها. فعليك بك، والله المستعان.

* * *

منظر (الطرق المختلفة)

لكل إلى الله، في الصراط المستقيم، منهج، هو طريقه، يذهب فيه إلى ربه، من حيثه، بما يقتضيه شأن الصفة، التي هي عين سره، الذي هو عينه، لا يذهب في ذلك المنهج غيره.

وأهل هذا المنظر: على سبيل الله، الذي هو صراط الله المستقيم، وليسوا على السبل المتفرقة التي ذكرها الله تعالى، في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، يعني عن سبيل الصراط المستقيم المحمدي. ولكنه سبيل صراط غير محمد، وإنما ورد الأمر الإلهي باتباع السبيل المحمدي، لأن طريقه أقرب الطرق إلى الله تعالى، وطريق غيره فيه البُعد. ثم إن الطريق المحمدي، مع قرب مسافته، مفضٍ إلى حقائق الكمالات الإلهية، وغير ذلك من الطرق لا يفضي إلا إلى الله مطلقاً.

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، بتجلٍّ ينجذب إليه أهل الطرق، من حيث تلك المناهج التي فطروا عليها، فلا يمكن أحداً في طريق مخصوص، أن يذهب من غير طريقه، الذي خلق الله سره مجبولاً عليه.

آفة هذا المنظر:

هو أن السلوك والسفر من لوازم أحكام العبد، والله تعالى منزّه عن الانتقال والتغير. فالسالك إلى الله، والذاهب في الله: محجوبون عما قبلهم من المواطن. وليس ذلك من شأن الكمال، فافهم!.

* * *

منظر (الصراط المستقيم)

الصراط المستقيم: هو صراط الله، الذي هو تنوعات تجليه في ذاته، لذاته. فمن حصل في هذا الصراط، واستقام على علم كيفية الاتصاف بأسماء الله تعالى وصفاته، فيتنوع بتجلياتها في العالم، على حسب مقتضى الشأن.

آفة هذا المنظر:

ذلك الحصول في الصراط، وعلم تلك الكيفية، فإن صاحبها غني عن ذلك جميعه. لأن الله تعالى متجلي بما هو عليه، كما يريد، مما يقتضيه شأنه الإلهي في الوجود: فبسط، وقبض، وجمال، وجلال، وهيبة، وأنس، وعظمة، ولطف ـ كل ذلك من غير علة، ولا ضرورة، وحاجة. بل الكمال الإلهي يختص به تعالى، فسبحانه! ما أعظم شأنه.

* * *

منظر (العناية)

سبقت العناية الإلهية للنوع الإنساني بالكمال الرحماني، حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ثم ورث الأبناء ما للآباء، بنص كتابه. فكل فرد من أفراد النوع الإنساني خليفة الله في العالم، لأنه متصف بصفاته، وذاته من نور ذاته. فهذه هي الخلافة! فأما نفوذ الأمر بالتصرف في الأكوان، فإنما هو أثر الخلافة، لا عين الخلافة. والناس في تحصيل ظهور الأثر المذكور مختلفون، وفي ذلك يكون التفاوت هنا، وفي الدار الآخرة:

ـ فمنهم من ظهر أثرها عليه بأدنى سعي، وذلك هو السعيد المنعم، في طريق ظهور أثر خلافته.

ـ ومنهم من شقي، بأن تعب في ظهور أثرها، فلم تظهر عليه حتى يتعذب بأنواع العذاب، وصفة الخلق في هذا المعنى صفة ملوك الأرض.

ـ ومنهم من تحصل له المملكة. بغير تعب ولا نصب.

ـ ومنهم من يتعب أولاً بأنواع التعب والإفلاس والفاقة، ثم يتعذب بأنواع الحروب، والضروب، وخوض المهالك، وضيق المسالك، حتى ينال الملك.

فالسعادة والشقاوة إنما هما باعتبار الطريق الذي يكون فيه الوصول إلى الله تعالى، وإلا فسائر النوع الإنساني، من حيث الذات الإلهية وصفاتها، خلفاء الكمال، متصفون بأنواع الجمال والجلال. ومن ثم قيل: (من سبقت له العناية، لم تضره الجناية). يعني: أن النوع الإنساني المسبوق له بالعناية المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] - لم تضره الجنايات، التي يتعذب بها في طريق وصوله، الذي خلقه الله تعالى مجبولاً عليه. فإذا وصل، لم يجد، لما مضى من التعب، ألماً.

قال الشاعر شعراً:

إن التجار إذا عادوا وقد ربحوا ... أنساهم الربح ما عياهم السفر[1]

آفة هذا المنظر:

ذلك الذهاب والرجوع، فإنه ما خرج منه حتى يدخل إليه، ولا انفصل عنه حتى يتصل، ولا مضى حتى يرجع. فرجوعه إنما هو إلى نفسه، وذهابه إنما هو فيها، ووصله إنما هو بذات نفسه. والكمال منزه عن مقتضيات هذه المعاني جميعها، فلا تحصل هذه الأشياء إلا عن حجاب، وترفعه العناية الإلهية لمن أهله الله تعالى للكمال، فيترقى عنها.

* * *

منظر (المملكة)

لهذا المنظر خاصية عجيبة، لازمة لكل من جعل في هذا المشهد: أن يدير بذاته العوالم بأسرها، فتدور الأفلاك بأنفاسه، وتجري الأمور على قدر قياسه، وتقع الواقعات، وتحدث الحوادث، ويصعد الطالع، ويهبط النازل، ويكمل الناقص، وينقص الكامل، وتختلج الذرات، وتهب الذاريات - بتصريف الله، منسوب إلى ذات هذا الولي، الذي تجلى الله عليه في منظر المملكة، فبقي أثر ذلك التجلي عليه:

---

(١) هذا البيت هو للشاعر المملوكي محمد بن حمير جمال الدين، شاعر اليمن في عصره، مات في زبيد سنة ٦٥١هـ والبيت من البحر البسيط وهو:

إن البسيط لديه يبسط الأمل ... مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

جميع ما ذكرناه من سائر الكمالات، إلى ما لم نذكره، والله يؤتي فضله من يشاء، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

آفة هذا المنظر:

تنزل صاحبه عن مجلى قاب قوسين أو أدنى، الذي هو عبارة عن: التجلي الذاتي المخصوص الأقدس. إلى سدرة المنتهى، الذي هو عبارة عن: تجليات المراتب الإلهية.

والبقاء مع ذات الله أعز وأغلى، في حق العبد، من البقاء مع مراتبه.

* * *

منظر (الحرف)

الحرف: هو عينك الثابت في العلم. من تجلى الله عليه، في المنظر الحرفي: اطلع على حقيقة كينونته في العلم الالهي، بأي صفة، وعلى أي حال. وفي أي مرتبة، أقامه الله تعالى في علمه.

وخاصية هذا المنظر: أن يحصل عند من حصل فيه: تقدس ذاتي، وتنزه صفاتي. فلا يوجد عنده إلا ما يعلم هو حسنه، ويطلع بالكشف على نكتة الجمال فيه. ويكون صاحب هذا المنظر عنده: علم محاتد المخلوقات، ويعلم أين بلوغ كل من الكمال، وأين وقوفه من سرادق الجلال والجمال.

آفة هذا المنظر:

ذلك التعين في العلم الإلهي، فإنه لازم للحد فيك. فكل متعين محدود، والحق ـ لتعالي ذاته ـ بخلاف ذلك. فوأسفاه عليك! كيف يكون فهمك لهذا الكلام، فإذا علمت أن كل متعين محدود، فاعلم أن كل محدود مقصور على حده، وكل مقصور محجوب، وذلك مناف لصفات الكمال، التي هي مشروع فحول الرجال.

* * *

منظر (الكلام)

كلام الله تعالى لعباده، منزّه عن: الحرف والصوت والجهة. ومستمعوه إنما يستمعونه بالكلية، بالله، فافهم! وأما كلمات الحق تعالى، فهي مخلوقاته في العالم

العيني، بالنون. فكما أن المعنى الموجود في النفس من الكلمة، لا يسمى كلمة، كذلك الأعيان الثابتة، في العلم الإلهي، لا تسمى كلمات، فلهذا سميت حروفاً. ولهذا قال سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي شعراً:

كنا حروفاً عاليات لم نقل ... متعلقات في ذرى أعلى القلل
أنا أنت فيه ونحن أنت وأنت هو ... والكل في هو هو فسل عمن وصل

وكما أن المتكلم بالكلمة، لا بد أن تكون عين تلك الكلمة ـ قبل ذلك ـ موجودة في علمه، كذلك الحق تعالى يعلم المخلوقات قبل إيجادها في العالم الكوني. وكما أن المتكلم، لا بد له من حركة إرادية في تخصيص الكلمة بالظهور على نسق معين ـ كذلك الحق، سبحانه وتعالى، لا بد للموجود من إرادة إيجاد الحق له. وكما أن الكلمة لا بد لها من نفس خارج بها من الصدر إلى محل تكوين الحروف ـ كذلك صفة القدرة، لا بد من تعلقها بالمخلوق ليوجد في العالم. وكما أن الكلمة، لا بد من التلفظ بها بالفهوانية ـ كذلك كلمة الحضرة، لا بد من توجهها إلى ما يريد الله تعالى إيجاده. وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠]. فلا بد للمخلوق: من تعلق الإرادة، والقدرة، وكلمة الحضرة ـ بإيجاده، فحينئذ يوجد. وقد بسطنا القول في التجليات الكلامية، في كتابنا الموسوم بـ(الإنسان الكامل)، وتحدثنا عليها بعبارة أخرى، من غير تلك الجهة، في الكتاب الموسوم بـ(قطب العجائب، وفلك الغرائب).

ومن تجلى الله عليه في هذا المنظر: علم حقيقة قول القائل: الكلام صفة المتكلم، وشاهد كشفاً وعياناً: صورة الموجود بما هي عليه. وحقق وجوداً ويقيناً. أن روحها القائم بها هو الله تعالى.

صاحب هذا المنظر: يكون عنده علوم تنوعات التجلي، والتحول في الصدر. فلا ينكره إذا تحول في صورة التنكر يوم القيامة، كما ينكره من لا يعرفه، بهذه المعرفة، عند تحوله في غير صورة المعتقد.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بمعارفه عن ذاته، وشغله بتجلياته عن الاتصاف بصفاته.

* * *

منظر (الصورة)

لتجليات الحق تعالى صورة، تظهر منها عليهم، أعني على عباده. وهي غير مكيفة، ولا محدودة، ولا مشبهة - بل على ما يقتضيه كماله. وهذه الصورة التي للتجليات، ليست صور المعتقدات، بل هي صور التجليات، كما ورد في قوله: «رأيت ربي في صورة كذا وكذا. الحديث»[1]. وله تجلٍ في صورة المعتقدات، وهي أيضاً ليس جميعها على حال واحد - بل تتنوع على قدر معتقدات العباد. فصورة تجليه عليهم، على نفس المعتقدات والعقائد. فالعقيدة مظهر، والمعتقد به ظاهر في المظهر. فإذا تحول في صورة معتقده، ينكره من كان معتقده في الله ضد تلك الصورة، مثاله: الحنبلي يعتقد التجسيم، والأشعري يعتقد التنزيه:

فإذا ظهر على الأشعري، من حيث معتقد الحنبلي، بأن برزت أنوار كماله في صورة تجسيم - عرفه بها الحنبلي، وأنكره الأشعري.

وكذلك لو ظهرت أنوار كبريائه في مطلق التنزيه، على ما يقتضيه التجلي الأقدس - عرفه بها الأشعري، وأنكره الحنبلي.

والمعتقدات بعضها أعلى من بعض، حتى أن بعض من يعتقد له جميع الصور، لو برز له على خلاف المعتقد الذي له - أنكره، وقال: لا بد له من حيطة جميع صور المعتقدات ونسبتها إليه. والله تعالى كذلك، ومن وراء ذلك، وبخلاف ذلك.

ولا يبعد عليك معنى تنوع تجلياته، في صورة المعتقدات. ألا تراهم اليوم في الدنيا: كيف ينكر بعضهم معتقد بعض، ولا يعرف الله تعالى إلا من حيث معتقد

---

(١) يشير إلى حديث: «رأيت ربي في صورة شاب أمرد» أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٤٠٩) [ج١ ص٥٢٦] ونص ما ذكره العجلوني هو «رأيت ربي في صورة شاب أمرد» هو دائر على ألسنة بعض المتصوفة وهو موضوع مفترى على رسول الله ﷺ لكن في اللآلىء عن ابن عباس رفعه «رأيت ربي في صورة شاب له وفرة» وروي «في صورة شاب أمرد» قال ابن صدقة عن أبي زرعة حديث ابن عباس لا ينكره إلا معتزلي وروي في بعضها «بفؤاده» والحديث إن حمل على رؤية المنام فلا إشكال وإن حمل على اليقظة فأجاب عنه ابن الهمام بأن هذا حجاب الصورة. قال القاري: كأنه أراد بهذا التجلي الصوري ولله تعالى أنواع من التجليات بحسب الذات والصفات لكنه تعالى منزه عن الجسم والصورة بحسب الذات وأما ما قاله السبكي في الحديث فإن أراد أن في سنده ما يدل على وضعه فمسلم وإلا فباب التأويل واسع. انتهى ملخصاً.

نفسه. كذلك في الدار الآخرة، تظهر هذه المعاني صوراً. فهذه صور تجليات المعتقدات، وهي خلاف صور التجليات الإلهية، التي هي له، ولو لم يكن ثم خلاف، لكنها ليست من هذا القبيل.

فأولياء صور التجليات الإلهية، أعلى من أولياء تجليات صور المعتقدات، ولو كانت أيضاً إلهية. فإن التفاوت عظيم: فأهل صور التجليات الإلهية، تبرز لهم أولاً: الكمالات الإلهية، في هيئة تقتضي صورة من صور التجليات، غير مشبهة، ولا محدودة. فيتبعون ذلك المقتضي، إلى أن تتجلى تلك الصورة الكمالية لهم، على حسب ما علموه، من مقتضى الكمالات الإلهية. فهم سائرون في عالم الجبروت، بحكم ما تقتضيه الصفات الإلهية.

فعقيدة هذه الطبقة، أعلى من طبقة أهل المعتقدات، وأنزل من الأفراد، فهي الطبقة الوسطى.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابهم بالصور عن المعاني التي لا تدخل تحت حكم التصوير، وكل معنى يدخل في صورة فهي داخلة في حكم التصوير. وكلا الطائفتين محجوبون بالصور عن المعاني الإلهية. وهذا نقص والحق من وراء ذلك.

* * *

منظر (المعنى)

صور الموجودات جميعها لها معنى منسوب إلى الله تعالى. وهو في نسبته إلى الحق، منزّه أن يكون حادثاً. فالحق تعالى هو القائم بمعنى صور الموجودات، والمتجلي فيها، بغير حلول، ولا مزج، بل كما هو أهله.

اعلم أن هذا المنظر، وإن سمي بالمعنى، فليس هو مطلق المعنى. بل هو اسم منظر مخصوص من التجلي، لواجب الوجود، الظاهر بمعاني الكمال، في سائر صور الوجود.

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، على أوليائه. فيعرفونه، بمعرفة دقيقة، تجل عن العبارة، إذ هي من التجليات الإلهية، المعروفة عند أهلها، بتجليات المعنى، لا صورة لها. فتأخذهم الحيرة، في هذا المشهد، ولهم فيه هيمان مخصوص، لا يعرفه غيرهم.

آفة هذا المنظر:

هو احتجابهم بالمعاني الكمالية، عن الذات الإلهية.

* * *

منظر (المعارف)

هو تجليه على عباده في الأسماء والصفات، التي تعرف بها إليهم. فإذا تجلى بها، عرفه عباده. فمشهد تجليات سائر الأسماء والصفات، التي هي بأيدينا، هي منظر المعرفة.

آفة هذا المنظر:

على الحاصل فيه، هو احتجابه بما يعرفه من الأسماء والصفات، عما استأثر به لنفسه في غيبه.

* * *

منظر (التنكير)

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، بالأسماء والصفات المستأثرة عنده، ويطلقها للعبد عن القيد، فيعرفه العبد بها. وهي داخلة تحت ما أشار إليه الحديث بقوله: «بكل اسم هو لك، استأثرت به في علم الغيب عندك، أو علّمته أحداً من خلقك»[١].

فمن الأسماء المستأثرة، ما يجوز تعليم الحق إياه لخواص عباده.

اعلم أن الأسماء الحسنى، التي هي أسماء الإحصاء، وغيرها، جميعها ـ هو ما تعرف به إلينا من الأسماء والصفات، فيما يتجلى بها على عبده.

---

(١) رواه بن حبان في صحيحه برقم (٩٧٢) [ج٣ ص٢٥٣]، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، رقم (١٨٧٧) [ج١ ص٦٩٠] وأحمد في المسند برقم (٣٧١٢) [ج١ ص٣٩١] ورواه غيرهم. ونص رواية ابن حبان: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحاً» قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: «أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

والمستأثرة: هي عبارة عن الأسماء والصفات التي لم يتعرف إلينا بها. وهي له، يتجلى بها على من يشاء من عباده، فهي مستأثرة عنده لا يعلمها إلا هو، ويعلمها من يشاء من عباده.

وشممت رائحة من هذا المحل، فحصلت في تجليس له بأيدينا اسم، فقلت: يا رب! ما اسم هذا التجلي؟ فقال لي: اسم وقتك، وحالك الظاهر، الذي أنت فيه، اسمه. ففهمت ما أراد، وفتح لي إلى علم المستأثرات باباً.

آفة هذا المنظر:

هو نقص ما تعلمه بما تعلمه، فإن كل ما علمك بما استأثر به عنده، إنما هو مما استأثر به سواك، لا عنك ـ كان ما استأثر به عنك، غير ذلك. فأنت حاصل في المستأثر، غير حاصل فيه، عالم به، جاهل عنه، وذلك من لوازم النقص والحجاب.

* * *

منظر (المعية)

يتجلى الحق تعالى على العبد، في هذا المنظر، فلا يفارق الحق، أعني: لا يفارق حضرة شهود التجليات الإلهية، وإلا فما ثمة فراق، ولا وصال. فهو مع الله أينما كان العبد. وأما قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فإن هذه المعية، المذكورة في الآية، بخلاف ذلك. لأن هذه المعية منسوبة إلى الله تعالى، وليس للعبد فيها شيء. فهي ولو كانت أعلى في مرتبة الوجود، لنسبتها إلى الله تعالى، فإن من كان مع الله، كان أشرف من مطلق كل من كان الله معه. لأن الله تعالى واسع عليم، فهو مع الغافل، ومع الحاضر. وأما العبد فلا يكون مع الله إلا على الحضور. فمعية العبد مع الله هنا، أعلى من مطلق معية الله مع العبد. لأن الأول لا يخلو من الثاني، والثاني قد يخلو من الأول. أعني: معية الحق قد تخلو من معية العبد، ومعية العبد لا تخلو من معية الحق. وثم وجه ثان، يكون من كان الله معه، أفضل ممن كان مع الله. لأن من كان مع الله، حاصله: أنه حاضر معه سبحانه، في تجلياته، غير غافل عنها. ومن كان الله معه، حاصله: أن الله قد صار مع العبد لاتصافه بصفاته كلها، فهو معه لا يفارق اتصافه. ومن ثم قيل: (يدور الحق مع عمر حيث ما دار). ولسنا نعني هذه المعية، بل نعني المعية المطلقة، المذكورة في الآية، بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

آفة هذا المنظر:

وجود الإثنينية في المعية، أو حصول الاتحاد. والله تعالى منزّه عن الشرك والاتحاد، تعالى الواحد سبحانه وتعالى.

* * *

منظر (العندية، بالنون)

العندية: عبارة عن حضرة العلم الإلهي.

يتجلى الله، على أهل هذا المنظر، بما يعلمه لنفسه، فهم عنده في حضرة علمه، وهؤلاء عنده في علمه. فتجليه على هذه الطائفة أعلى من سائر التجليات على العباد.

آفة هذا المنظر:

احتجابهم بتجلياته عن تجلياتهم، فيما اتصفوا به من الكمالات، وتحققوا به من الأسماء والصفات.

* * *

منظر (أستغفر الله)

يتجلى الله تعالى، في هذا المنظر، على العبد، بتجلٍ، يستتر فيه وجود العبد. فيغفر ذات العبد، أي: يسترها بذاته. فلا يشهد في الوجود إلا الله وحده.

ومن التجليات المختصة بهذا المنظر، ما يستر، فيغفر صفات العبد بصفات الله، وأسماؤه بأسمائه. فتكون ذاته موجودة، ولكن ليس له اسم ولا صفة، بل أسماء الله تعالى وصفاته.

من التجليات المختصة بهذا المنظر، ما يستر، فيغفر أفعال العبد بأفعال الله وصفاته من التجليات: فلا يرى فاعلاً في الوجود إلا الله، في الخير والشر. يشهده العبد عند وقوع الفعل، فهو حاضر مع الفاعل بما فعل.

ومن التجليات المختصة بهذا المنظر، ما يستر، فيغفر قبائح الأشكال والمعاني بالحسن المطلق. فلا يرى العبد إلا حسناً في العالم بأسره.

وأعلى تجليات هذا المنظر، ما يستر ذات العبد، أعني: وجوده. فقال القائل شعراً:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب فغفرانه أعظم الغفران

وأنزل من ذلك: ما يستر به، فيغفر الصفة، فالاسم، فالفعل، فالقبح، فالذنب - وهو حظ سائر العوام من الناس.

آفة هذا المنظر:

هو دعواك الوجود من دونه، فلو لم تكن مدعياً لذلك، لما احتجب الستر. هذا لمن هو في مقام الفناء، وهو في مقام البقاء، نقص أيضاً. لأن الستر الذي هو الغفران: حجاب، والمحجوب ناقص.

* * *

منظر (سبحان الله)

في هذا المنظر: يتجلى الله تعالى على العبد بتجلٍ، تتعشق به حضرة التنزيه، ويتعشق بها. فلا يدخل قلبه الكون، ولا يلحق به نقص، ولا ينتمي إليه تحديد ولا حصر. فيه: يجحد الولي أباه والأبناء، ويفقد أعداءه والأنداء، وينكر حكم العناصر عليه، وينفي وقوع حكم القبلية والبعدية عليه.

من تجلى الله عليه، في هذا المشهد، أقام منزه الذات، مقدس الصفات، لا يلحق به شيء من لوازم المحدثات. فيه قال الإمام أبو يزيد رضي الله عنه: (سبحاني ما أعظم شأني)[1].

---

(١) قال الشيخ أبو نصر الطوسي في كتابه «اللمع» مؤولاً كلام أبي يزيد هذا: قال الشيخ رحمه الله: سمعت ابن سالم يقول في مجلسه يوماً: فِرْعون لم يقل ما قال أبو زيد رحمه الله، لأن فرعون قال: أنا ربُّكم الأعلى، والرب يسمّى به المخلوق، فيقال: فلان رَبُّ دار وربُّ مالٍ، وربُّ بيتٍ، وقال أبو يزيد رحمه الله: سُبْحاني سُبْحاني، وسُبُّوح، وسبحان اسمٌ من أسماء الله تعالى الذي لا يجوز أن يسمى به غير الله تعالى.

فقلت له: هذا الكلام قد صحّ عندك عن أبي يزيد، رحمه الله، وصح عندك أن اعتقاده في ذلك كان كاعتقاد فرعون في قوله: أنا ربُّكم الأعلى؟ فقال ابن سالم: قد قال ذلك حتى يصح عندي: أنه أيش أراد بذلك؟ يلزمه الكفر.

فقلت: إذا لم يتهيأ لك أن تشهد عليه بما اعتقدَ عند قوله ذلك فبطل أن تكفره، لأنه يَحْتَمِلُ أن يكون لهذا الكلام مقدماتٌ، فيقل: يعقبه سبحاني سبحاني: يحكي عن الله تعالى يقول: =

آفة هذا المنظر:

احتجابه بالتنزيه عن التشبيه، ووقوفه مع العز عن درجة العجز. وذلك في حق الولي نقص وحجاب.

* * *

منظر (الحمد لله)

هو أعلى المناظر المذكورة، في هذا الكتاب جميعها.

فيه يتجلى الله على العبد، بتجلٍ، يحمد الله فيه نفسه بنفسه، عن العبد. وحمده لنفسه: تجليه فيما يستحقه من الكمالات الإلهية، والشؤون الذاتية، والمقتضيات الصفاتية، بإعطاء كل شيء حقه.

في هذا المنظر: يشهد العبد حقائق الكمالات الإلهية، متصفاً بها، وذلك من حيث إعطاء الحق حقه.

وفي هذا المنظر: يعلم العبد كيفية الاتصاف، ويجد لذة الألوهية سارية فيه، وبسريانها يتجلى بالعظمة والكبرياء، متصفاً بها.

وفي هذا المشهد من التحف والطرف ما لا يسع هذا العالم ذكره.

والقائم في هذا المشهد، هو القائل، من حيث الحال: «أنت كما أثنيت على نفسك»[1]. وهذا معنى قولي، في أول هذا المنظر: إن الله تعالى يحمد نفسه بنفسه عن هذا العبد.

آفة هذا المنظر:

قصور العبد عن أداء الحمد، لأنه القائل، حالاً ومآلاً: «لا أحصي ثناءً عليك»[2] والعاجز محجوب قاصر.

* * *

= سبحاني سبحاني، لأنا لو سمعنا رجلاً يقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ما كان يختلج في قلوبنا شيءٌ غير أن نعلم: أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو ذا يصف الله تعالى بما وصف به نفسه.

وكذلك لو سمعنا، أبا يزيد، رحمه الله أو غيره، وهو يقول: سبحاني سبحاني: لم نشك بأنه يسبّح الله تعالى، ويصفه بما وصف به نفسه.

وإذا كان الأمر هكذا وعلى ما قلناه، فتكفيرك لرجلٍ مشهور بالزهد، والعبادة، والعلم، والمعرفة: من أعظم المُحالات. (اللمع ص٣٣٣، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت).

(١)، (٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

منظر (لا إله إلا الله)

يتجلى الله على العبد، في هذا المنظر، بتجلٍّ، تضمحل فيه الأكوان فتنعدم رأساً، وينعدم وجود العبد.

في هذا المشهد: يكشف الله تعالى حقيقة «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»[1]. فيكون الله كما لم يزل، ويكون العبد كما لم يكن.

فيه يقول الحق تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فيجيب نفسه بنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. يعني: ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ [غافر: ١٦]: من غير مشاركة موجود ثان. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]: الرب قهر الموجودات، بظهوره عليها، فانعدمت تحت سلطان جلاله.

فالعبد في هذا المشهد: ممحوق، مطموس، معدوم، لا وجود له.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بالحق عن الخلق، وذهابه عنه به.

* * *

منظر (الله أكبر)

تتجلى المعاني الإلهية الكمالية على العبد في هذا المشهد، وهو مع الذات. وكلما تجلى عليه بصفة كمال، رجع عنها إلى الذات بما هو أكمل، ونفى الصفة الأولى. لا تزال تبدو عليه بوادي الكمالات، شيئاً فشيئاً. وهو كلما تحقق بصفة، امتنع من قبولها، بشهود ما هو أعلى، فلا يزال هذا دأبه. وفي هذا المشهد: رأيت

(١) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة هود برقم (٣٣٠٧) [ج٢ ص٣٧١] والنسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ برقم (١١٢٤٠) [ج٦ ص٣٦٣] ورواه غيرهما.
ونص رواية الحاكم هو: عن بريدة الأسلمي قال: دخل قوم على رسول الله ﷺ فجعلوا يسألونه يقولون أعطنا حتى ساءه ذلك ودخل عليه آخرون فقالوا: جئنا نسلّم على رسول الله ﷺ ونتفقه في الدين ونسأله عن بدء هذا الأمر، فقال: «كان الله ولا شيء غيره وكان العرش على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق سبع سماوات» قال: «ثم أتاه آت فقال إن ناقتك قد ذهبت قال فوددت أني كنت تركتها».

الإمام أبا الحسين النوري، رضي الله عنه، وفيه مات، وعليه قبض. وهو كان حاله في سماع البيت:

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألباب دون نزوله

ورأيت معروفاً الكرخي فيه أيضاً، هو وجماعة من المشايخ، رضي الله عنهم.

آفة هذا المنظر:

هو احتجاب العبد عن سائر الصفات بما هو الأعلى فالأعلى. والكامل شامل ومحيط، والله لا نهاية له. والمقتصر على وجدان صفة من ذات الحق، دون غيرها ـ محجوب عما سواها.

* * *

منظر (لا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم)

يتجلى الله تعالى، بتجلٍ، يسلب فيه: قواه، وحوله، وقوته، وقدرته، وفعله، وحركته، وإرادته. فهو مسلوب الحول، والقوة، والقدرة، فالفعل، والإرادة، والحركة ـ لظهور عظمة العلي تعالى فيه. يقول سيد أهل هذا المقام: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾[1] [الأحقاف: ٩].

وفي هذا المنظر: تكون تجليات الأفعال مشهودة للعبد، فيكون مع الله تعالى بواسطتها. ومن ثم، يقال لصاحب هذا المشهد: قم! فيقول: لا أقدر!. تكلم! فيقول: لا أعلم!. اسمع! فيقول: لا أفهم!. ما كان؟! فيقول: لا أدري!. ومع هذا

---

[1] روى الحاكم في المستدرك برقم (٣٦٩٦) ما نصه: عن أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها وقد كانت بايعت رسول الله ﷺ قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين أقرعت الأنصار على سكنى المهاجرين قالت فاشتكى فمرضناه حتى توفي حتى جعلناه في أثوابه قالت فدخل رسول الله ﷺ فقلت: رحمك الله أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله فقال النبي ﷺ: «وما يدريك؟» قالت: لا أدري والله يا رسول الله، قال: «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير من الله» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ قالت أم العلاء: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً. قالت أم العلاء: ورأيت لعثمان في النوم عيناً تجري له فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك فقال: «ذاك عمله يجري له» هذا حديث قد اختلف الشيخان في إخراجه فرواه البخاري عن عبدان مختصراً ولم يخرجه مسلم، وروى الحديث غير البخاري.

كله تصدر الأفعال منه، وأنت تشهدها تجري عليه، وهو يرى عن فاعليتها. فلو رأيته يأكل شيئاً، وقلت له: أنت تأكل كذا وكذا! لقال: لا! وأقسم أنه لم يأكل، ولم يفعل شيئاً، لدهشته بفعل الله تعالى، وشغله بذلك، عن فعل نفسه. فلا يعلم لنفسه فعلاً: إذ لا إرادة، ولا قوة، ولا قدرة، ولا حول، ولا فعل له. فلا يشهد أفعال العالم جميعها إلا بالله تعالى. ولا ينسب إليه، من تلك الحركات والسكنات، شيئاً.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بتجليات الأفعال، عن تجليات الأسماء والصفات. وقد وضعنا لكل من ذلك باباً، في كتابنا الموسوم بـ(الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل). وتحدثنا عن هذه التجليات بحديث، لم يفصح أحد من العارفين عنه، ولم يسمح به في مصنفاته. ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بـ(قطب العجائب، وفلك الغرائب).

* * *

منظر (الملائكة المهيمين)

لله ملائكة مهيمون في مناظر التجليات الإلهية: فمنهم من دهش، ومنهم من ضعف، ومنهم المشاهد، والمتكلم، والمتحرك، والساكن ـ وهم كلهم من الملأ الأعلى، ليسوا عنصريين، ولا موجودين من الطبائع. بل هم أنوار مجردة، خلقهم الله تعالى من نور أسمائه وصفاته. وكل من خلق من نور اسم، فهو مهيم فيه، لا يعرف الله إلا به، ولا يعرف إلا به، ولا يعرف غير ذلك الاسم.

رأيت في هذا المشهد: خلقاً من هذا النوع الكريم، لا يمكن شرحهم، قد ألبسهم الله تعالى ملابس الهيبة والعظمة، فلا يراهم أحد إلا ويخرج عن حاله، إلى حال آخر. ورأيت لهم مائة ملك مقدمين عليهم، ورأيت عليهم مقدماً ـ كلهم تحت حيطة اسمه القائل. له مع كل ملك وجه خاص. ولهذا الملك من التمكنات والحيطة، والاتساع ـ ما لا يمكن شرحه. وهو الملك المسمى بالروح، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]. فيكون هذا الملك وحده صفاً، وباقي الملائكة جميعاً صفاً. وقد بوّبنا له باباً، شرحنا فيه عجائبه، وغرائبه، في كتابنا الموسوم بـ(الإنسان الكامل).

وفي هذا المنظر: رأيت جماعة من الأولياء، كل شخص مع ملك، ذلك إلا أحدهما أو كلاهما. وفي هذا المنظر من عجائب آثار الله، ما لا يمكن شرحه.

آفة هذا المنظر:

احتجاب العبد فيه، بما هو عليه من الحق تعالى، عن بواقي الكمالات الإلهية.

* * *

منظر (العرش)

عرش الرحمٰن: هو الربوبية النافذة في حق الوجود المطلق، بأحدية الوجود، الساري فيه، فيتجلى فيها: جمالاً وجلالاً، بالبسط، والقبض، والعطاء، والمنع، والإيجاد، والإعدام.

يتجلى الله تعالى على العبد، في هذا المنظر: بتجلٍّ يتمكن فيه العبد من العالم الكوني. فيفعل ما يشاء، كما يريد. فحينئذ يستوي العبد، أعني: روحه المقدسة ـ على عرش الأسماء والصفات: فيتصف بما شاء من الصفات، ويترك ما شاء مدخراً في الذات، أعني: يظهر أثر ما شاء، ويخفي أثر ما شاء، فافهم!.

واعلم أنا لم نتعرض لذكر العرش المطلق المذكور بالإحاطة للوجود، ولكن أحلنا معرفته على قلبك. وقد ذكرنا في (الإنسان الكامل) جميع ذلك، فاطلبه هنالك. فافهم! وافهم! حتى تفهم ما يفهم!.

آفة هذا المنظر:

احتجاب العبد عن تجلي الإلهية، بتجلي الربوبية.

* * *

منظر (الكرسي)

من تجلى الله عليه في الكرسي، اتصف من الله تعالى بسائر الصفات المتقابلة الفعلية، وبها يكشف له عن تجلي القدمين والنعلين، قبضاً وبسطاً، ونعمة ونقمة، وهيبة وأنساً.

آفة هذا المنظر:

احتجابه باتصافه بالصفات الفعلية، عن الاتصاف بالأسماء الذاتية.

* * *

منظر (القلم الأعلى)

هو نور مخلوق من حضرة اقتضاءات الأسماء والصفات، لظهور مؤثراتها، لظهور الأثر. يتجلى الله تعالى على العبد، في هذا المشهد، بتجلٍ علمي، فيه بحكم الولي على الموجودات بما تقتضيه صفات الحق تعالى فيها، من الاقتضاءات المختلفة.

وفي هذا المشهد: يتعرف العبد بالعقل الأول، فيدركه حقيقة الإدراك. ولا يعرف هذا، غير الرجل الحاصل في هذا المنظر، ما هو العقل الأول، على حقيقة ما ينبغي.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بمقتضيات الصفات، عن مقتضيات الذات. فعلم مقتضيات الصفات، هي المعبَّر عنها بالكتاب المبين. وعلم مقتضيات الذات: هي المعبَّر عنها بأم الكتاب ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [الرّعد: ٣٩] من علم مقتضيات الصفات، بعلم مقتضيات الذات ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٣٩] يعني: علم مقتضيات الذات.

* * *

منظر (الكون)

اعلم أن الكون عبارة عما: سوى الله تعالى. فكل ما في الوجود مما سوى الله تعالى، يسمى كوناً.

يتجلى الله تعالى، من حيث اسمه الظاهر، للعبد، في هذا المنظر، فيشهد الأكوان جميعاً: عين الحق، ولا يفرق بين شيء منها، قد أسمعه الله تعالى حقيقة قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥].

آفة هذا المنظر:

احتجابه بالحق عن الخلق.

* * *

منظر (اللوح)

اعلم أن اللوح مجملاً: مجلى تعيين نبذة من علم الله في المحدثات.

من تجلى الله عليه، في هذا المنظر، تحقق بعلم ما كان، وما سيكون، إلى يوم القيامة.

آفة هذا المنظر:

إن الناظر في اللوح لا يفصل من مجملات علومه، إلا ما يلهمه الله تعالى لإرادة تفصيله. ويبقى ما لا يلهم تفصيله: مجملاً. فلا يعلمه في الشهادة. ولو سألته عنه، لقال: لا أدري! ويعلمه في عالم الغيب: حكماً وجودياً. ولا يعرف ما قلناه، إلا من وقع في هذا المشهد.

* * *

منظر (سدرة المنتهى)

سدرة منتهى العارفين: فناء الأوصاف الكونية من ذواتهم، ببقاء الأوصاف الإلهية، واتصافهم بها. فهذا غاية ما ينتهي إليه السالك في الله تعالى.

آفة هذا المنظر:

بقاء الإثنينية، في عجزه عما لا يمكنه الاتصاف به.

* * *

منظر (مَن أنت؟)

يتجلى الحق تعالى على العارف بتجلٍ يكشف له عن حقيقة ذات العارف. فيقال له، في هذا المشهد: مَن أنت؟ فيقول، ما قاله الحلاج، وأبو يزيد وغيرهما من أهل هذا المقام.

آفة هذا المنظر:

احتجابه بحقيقته، عن أنيته.

* * *

منظر (مَن أنا؟)

يتجلى الحق سبحانه وتعالى، في هذا المشهد، بتجلٍ يكشف للعبد فيه عن حقيقة الذات المقدسة. فلا يجد العبد إلا ذات نفسه، لذهوله عن الحيطة، بشهود الحق تعالى، ووجوده في أنية العبد.

وفي هذا المشهد، يقول العبد: ما ثم إلا أنا! وحق ما قال، وصحيح ما ادعى لكن أين مقام العبودية، من مقام الربوبية!.

آفة هذا المنظر:

احتجاب بأنوار الربوبية عن آثار العبودية.

* * *

منظر (الإشارة)

للإشارة منظر جلي، ومشهد علي، ومعنى عزيز سني. أنت المراد بها على كل حال، وهو المشار إليه في كل مقال. أنت العين، وهو الحكم. أنت الوجود، وهو الشهود. أنت الجوهر، وهو العرض. أنت هو، وهو أنت. أنت الموصوف، وهو الصفة، لكنه الموصوف، وأنت الأثر. هو الأم، وأنت الولد. لكن أنت الروح وهو الجسد. أنت حاصل كنوزه، أنت معمى رموزه، أنت صريح ملغوزه ـ هذا كله منك وفيك، والله يتعالى عن الإشارة والعبارة، وهو الكبير المتعال. فاشحذ فهمك، وجزد همك، وافتق ما رتقناه عليك، ليسهل فهم ما أشرنا إليك، كلامنا لا يفهم، وحالنا لا يعلم: «أى چنان أى دوست»[1].

آفة هذا المنظر:

عدم استيفاء أداء الأمانة، ولا وقوع لصاحبه في خيانة لم يكشف لك برقع هذه العبارة، لأن الكلام عن الحقائق بالإشارة. ولا يفهم إشاراتنا، ويعرف آفة ما فيها من عباراتنا، إلا من هو نحن، ونحن هو، فافهم!.

وإليه الإشارة بقول الجنيد شعراً:

وغـنـى لـي مـنـي قـلـبـي فـغـنـيـت كـمـا غـنـى
وكـنـا حـيـث مـا كـانـوا وكـانـوا حـيـث مـا كـنـا

ولقد أردف الشيخ العالم الرباني شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الرداد هذه الأبيات: بيتاً ثالثاً، فقال شعراً:

فـمـا بِـنّـا ولا بـانـوا ولا بـانـوا ولا بِـنّـا

---

(١) [أي جنان أي دوست] عبارة باللغة الفارسية معناها [هكذا يا صديقي] حسب ترجمة أستاذ اللغة الفارسية الدكتور عبد الله الخالدي مشافهة عبر الهاتف.

ولعمري أشار إلى معنى غريب، لولا المقام مقام الإشارة، لأفصحنا عنه العبارة.

* * *

منظر (البهت)

يتجلى الله تعالى على العبد بتجلٍ يذهب فيه لبه، ويزيل عقله، وتنعدم فيه معارفه، فيبهت مصطلماً، تحت أنوار وجدان الحق تعالى. وهذا التجلي المخصوص تجلي ذاتي، ليس للأسماء والصفات التي تعرفها، فيه مدرج ولا مسرح. ومن الفحول من يحفظ الله عليه عقله، في هذا المشهد، لكنه يكون مبهوتاً: إن سألته، لم يستطع الجواب، وإن خاطبته لم يقدر على الخطاب. فعجزه إنما هو من حيث قدرته، لا من حيث ذهاب العقل، حتى أنه لو أراد أن يرفع طرفه من محل إلى غيره، لم يستطع في غالب أوقاته.

وفي هذا المشهد: رأيت رجلاً من الشيوخ ببلدة تسمى الأنفة، هو الفقيه الأجل العارف جمال الدين محمد بن إسماعيل بن المكدش، نفع الله به! توفي سنة ثمان وتسعين وسبعمائة بقريته المذكورة. ورأيت من هذا المذكور، في زيارتي له أيام بدايتي - بركات كثيرة.

آفة هذا المنظر:

هو العجز الظاهر على روحانية هذا العبد، فإن الكامل لا يبالي بما عسى أن يتغشاه من أنواع التجليات. لأن الله قد كمل ذاته، فهو مستعد كامل، لما يرد عليه من ذلك الجناب. والعاجز ناقص ومحجوب.

* * *

منظر (﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١])

يتجلى الله تعالى على العبد بتجلٍ يكشف له فيه عن مفاتيح الغيب، التي أودعها الله تعالى في الإنسان الكامل، فيفتح بها أقفال غيب ذاته، فيلج في خزائن الملكوت، ويرى ما أودع الله فيها من أسرار الجبروت، ما لا يدخل تحت الحد، ولا يعرفه إلا الله تعالى. وحينئذ يعلم حقيقة قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١].

من تجلى الله عليه، في هذا المنظر، حلّ رموز العالم من ذات نفسه، وعالم هيكله، بجميع ما فيه، كل ذرة منه، روحانية عالم من العوالم الوجودية الشهادية. فإن أراد تدبير ذلك العالم، أو تحريكه، حرك من نفسه ذلك الرمز، الذي هو روح ذلك العالم، فتحرك أجزاء ذلك العالم، في عالم الشهادة، والملك والملكوت، بتحريك ذلك الرمز، فإن الجسد تابع للروح. وقد علمت أن ذرات وجود الإنسان الكامل أرواح لسائر الموجودات. وقد وضعنا لمعرفة هذه الرموز، التي في الإنسان الكامل، كتاباً سميناه (قطب العجائب، وفلك الغرائب) وبسطنا القول في ذلك مما أذن لنا وأعلمنا. واعلم أنه لم يضع ذلك العلم أحد في كتاب قبلنا فالحمد لله على أن جعلني أول واضع لذلك العلم الإلهي في عالم الشهادة. ليستدل من ذلك الكتاب، في هذا الفن، مَن أيّده الله تعالى بروح منه، وجعله من عباده المقربين.

وقد تحققت بهذا المشهد في سنة ثلاثة وثمانين وسبعمائة.

آفة هذا المنظر:

وقوفه مع الرمز والرموز، وتحريك المخلوق بالمخلوق. وليس الفخر إلا في تحريك العالم بالله تعالى. وهذا حجاب صاحب هذا المشهد، إن اقتصر على ظاهره، والله أعلم.

* * *

منظر (﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣])

أول ما يتصف العبد بالتكوين في عالم الغيب، فيكون الأشياء في الملكوت، ولا يستطيع على تكوينها في الملك. فمثله مثل أن يستطيع تصوير الخيالات في عقله ولا يقدر عليها في محسوسه.

فإذا استقام رجله، في هذا المنظر، ثم اتصف حساً، بصفتي القدرة والإرادة - تجلى الله تعالى عليه بتجلٍ إلهي يكسبه نفوذ الأمر في عالم الأكوان جميعها. الغيبية والشهادة.

حينئذ يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]! غيباً وشهادة.

والناس في هذا المقام متفاوتون:

- فمنهم من يظهر أثر أمره على الفور.

ـ ومنهم من يتأخر ظهور أثر أمره، لسر يريده الله تعالى. وأمر نافذ بقدرة الله تعالى، وإرادته.

آفة هذا المنظر:

هو ادعاء العبد ما ليس له، لأن مقام التكوين للرب تعالى، ومقام الكون للعبد. فإذا قال العبد لشيء: كن! فكان! ـ فقد ادعى مقام الربوبية وليس له. وكل مدّعٍ ما ليس له: فهو كذاب! وتحت هذه الكمالات إشارات، يعرف أهلها ما هي، والسلام.

* * *

منظر (العجز عن درك الإدراك: إدراك)

في هذا المنظر: سئل الجنيد، رضي الله عنه، عن النهاية، فقال: «الرجوع إلى البداية». لأن العبد مخلوق من العدم، والعجز لاحق بالعدم فإذا رجع، بعد تحصيل الكمالات الإلهية، إلى العجز والعدم ـ فقد صار على طرف النهاية.

يتجلى الحق تعالى، في هذا المشهد، بتجلٍ يكشف فيه للعبد، عما أودعه في روحه من الكمالات الإلهية، التي يعجز الكون، بما فيه، عما فيه ـ عن حمله. فإذا أشرف عليها شم، بقوة الأحدية، ما فاته من علم ما فيه، من تلك الكمالات الإلهية، والاتصاف بها. فلم يدركها، إذ لا يمكن درك ما لا يتناهى.

آفة هذا المنظر:

لحوق العجز بالولي في مقام الكمال الإلهي. وما ذلك إلا نقص، لأنه قابل صفات الله تعالى بذات نفسه. فلو قابلها بذات الله تعالى، لما قال بالعجز، لأن الله تعالى لا يلحق به عجز، فهو الكمال المطلق.

تمت المناظر الإلهية، بعون الله تعالى
والحمد لله أولاً وآخراً

شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي

تأليف

الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي

المتوفى ٨٣٢هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أما بعد؛ فإنه لما كان العلم بالله، أعظم العلوم قدراً وأرفعها فخراً وأدقها معنى وأجلها سِرًا، إذ هو الغرض اللازم والواجب الدائم، فحكمه ماضٍ في الأولى والأخرى؛ وما سواه من العلوم، ينقطع حكمه بانصرام الدنيا. وهو المقصود من معرفة سائر العلوم، وبه لا بغيره تفتخر العقول والفهوم. والعلماء به، هم أهل الولاية الكبرى والمكانة الزُّلفى، وهم أفضل العلماء ـ على الإطلاق ـ بالتفصيل والإجمال، وأجمعهم لكل وصف محمود من صفات المجد والكمال. فهم الخلفاء، الكملاء، الأدباء، الأمناء؛ وفيهم قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

أردتُ ـ بإذن الله ـ أن أمنح عباد الله شرباً من عباب المعارف، وأُظهر لهم حلاوة العلم بترتيب الحكمة في الآلاء والعوارف. وكانت الفتوحات المكية التي أَلَّفها الوليُّ الأكبر والقطب الأعظم الأفخر، مظهر الصفة العلمية، ومجلى الكمالات العينية والحكمية، لسان الحقيقة وأستاذ الطريقة، المتبوع التابع لآثار الشريعة: محيي الدين، قدّامة الأولياء المقرَّبين، أبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي المغربي الأندلسي[1]، قدّس الله سرَّه وأعلى عنده مقامه وقدره؛ أعظم الكتب المصنَّفة في هذا العلم نفعاً، وأكثرها لغرائبه وعجائبه جمعاً، وأجلُّها إحاطةً ووسعاً. تكلَّم فيها بألسنة كثيرة، وأفصح عن معانٍ غريبةٍ خطيرة؛ فصرَّح تارةً عن حالة، ورمز أخرى عن حال. وأفصح طوراً عن مقصود، وأدمج أخرى عن مرادٍ في المقال.

ولم يزل ـ رضي الله عنه ـ يتكلَّم في هذا الكتاب على حقائق الأشياء، حتى آل به الأمر إلى الإسهاب والإطناب فعسر على الأكثرين تحصيله، وفات عن الغالب معرفته وتأويله. وصار الناس فيه بين أحد رجلين: رجلٌ عجز عن تحصيل الكتاب، وعن انتوال الفائدة منه، وخاب، ورجلٌ حصَّل، وعجز عن معرفة ما أراده الشيخ من

(١) المتوفى سنة ٦٣٨هـ.

كناياتٍ عجيبة وإشاراتٍ غريبة، فانقطع بالكلية عن درك علمه؛ لأنه: يحتارُ عقلُ كل فاضلٍ ولبيبٍ، في حلِّ مُشكل ذلك الرمز الغريب.

لكنه ـ رضي الله عنه ـ صرَّح بأنه جمع معاني العلوم المبسوطة في ذلك الكتاب، وجعلها مرموزة في الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة من الأبواب، وكَفَّ ذلك النَّشْر، وأدمج ذلك العلم الكبير القدر، الكثير الفخر، على وضعه العجيب وأسلوبه العزيز الغريب، فانغلق بالكلية فَهْمُ ما جعله في ذلك الباب، على كثيرٍ من أولي الألباب.

فقصدتُ بشرح هذا الباب المخصوص، حلَّ جميع مشكلات الكتاب. واختصرتُ في الكلام، لئلا يفضي إلى الإسهاب والإطناب، وسميته: **شرح مشكلات الفتوحات المكية، وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللدنية**. غير أني سأُتحفه تهذيباً، وأجعله على أسلوب الكتاب ترتيباً؛ ومن الله المرجو أن يعمَّ به الانتفاع، ويقدح بأسماعه زناد الأسماع، فيفهم معانيه كل مَنْ سمعه أو نظر فيه، إنه وليُّ الإجابة، والموفِّق للإصابة.

وهو المستعان وعليه التكلان.

الباب الأول

نَحْنُ؛ مَحَلُّ انجِلاَءِ كُلِّ شَيْءٍ، وَظُهُورِهِ

قال الإمام رضي الله عنه: **الباب التاسع والخمسون بعد الخمسمائة، في معرفة أسرار وحقائق من منازل مختلفة**. أراد بالأسرار: اللطائف الإلهية التي أودعها في ذوات الموجودات، فاختصَّ كل موجودٍ بلطيفة هي محتدُه من كمال الحقِّ تعالى، بها يرجع إلى رَبِّه؛ وهي الحاكمة على روحه وقلبه، ومن ثَمَّ قيل: بين العبد ورَبِّه سِرٌّ لا يطَّلع عليه مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسلٌ.

وسببُ ذلك، أن كُلَّ شيءٍ من الموجودات مملوءٌ بما أودعه الله فيه من خصائصه، فليس في شيءٍ فضلة يسع بها ما في غيره. فما لكل أحدٍ من الله، إلا ما هو عليه ذلك الشخص منه، غير هذا لا يكون؛ ولكن قد يكون سرُّ بعض الأشخاص ذاتياً، فيرجع إليه في الحُكْم، جميعُ أسرار الموجودات؛ لضرورة رجوع الصفات إلى الذات، فيحوي كل ما حواه الوجود، إجمالاً وتفصيلاً، وليس له على التفصيل، إلا ما هو عليه عيناً ووجوداً. فافهم.

وأراد بالحقائق: ما تقتضيه تلك الأسرار من الأوصاف والنِّسَب الإلهية الحقيقية. وأراد بالمنازل: أطوار المراتب المختلفة، لأنه لا يمكن أن تجتمع مخلوقات في مرتبة من المراتب الإبداعية. هذا لا يكون أبداً، لأن الله تعالى أوسع من أن يتجلَّى على عبدين بصفةٍ واحدة، أو بصفةٍ على عبدٍ مرتين. فليس في الوجود شيءٌ مكرَّرٌ؛ بل كل شيء له مرتبةٌ مخصوصةٌ به، وصفةٌ من صفات الله تعالى يرجع بها إليه، واسمٌ حاكمٌ له وعليه. ولولا ذلك لاختلطت الجزئيات ورجعت إلى الأمر الكُلِّي، وانبهم الأمر التفصيلي، والتحق بعض الوجود ببعضٍ. فزال الضِّدُّ والنظير، فاتَّحد الماءُ بالنار، وبَطَلَ حُكْمُ التركيب، وليس هذا إلا في البداية والنهاية، وأما في البرزخ الفاصل بين الأزل والأبد، فلا بد من رعاية ترتيب الحكمة الإلهية التي بها قامت الأحكام وتميَّز الكفر والإسلام وظهرت الربوبية والعبودية، إلى غير ذلك من المراتب الخَلْقية والمظاهر الحَقِّية التي قصد الإمام ـ رضي الله عنه ـ أن يتكلَّم عليها في هذا الباب.

فأول ما أنشأ في ذلك، قال: **لله في خَلْقه نذيرٌ يُعلمهم أنه البشيرُ**. أراد رضي الله عنه بالنذير والبشير: الحقيقة المحمدية الكلية، التي هي موجودةٌ بجريانه في كل نبيٍّ ووليٍّ بالعين والشهود. وفيما عدا هذين الوصفين ـ بالحكم والوجود ـ فهي على التحقيق روح الأرواح، ولهذا قال: **وهو السِّرَاجُ الذي سَنَاهُ يُبْهِرُ أَلْبَابَنَا المُنيرُ**. أي، الحقيقة المحمدية هي النور الذي يقع به التميُّز، ومن ثَمَّ عبَّر رسول الله ـ ﷺ ـ عن رُوحه الكريمة بالعقل، فقال في حديث: «أول ما خَلَقَ الله العقل»[(١)]. وقد ورد عنه أنه قال: «أول ما خلق الله رُوح نبيِّك يا جابر»[(٢)]. فعلمنا أن روحه هي العقل الذي به ظهر الوجود، وتميُّز العابد من المعبود، لأن الله تعالى جعل العقل الأول جامعاً لحقائق الموجودات، وأبرزها منه على الترتيب الذي أراده في علمه، وقضى به في حكمه.

والدليل على ذلك، ما ورد في الحديث عنه ﷺ، أنه قال حاكياً عن الله تعالى أنه قال للقلم: «اكتب. فكتب في اللوح المحفوظ، ما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة»[(٣)] والقلم هو العقل الأول المعبَّر عنه بالروح المحمدية، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أول ما خَلَقَ اللَّهُ القلمُ»[(٤)] فوجه الجمع بين هذه الأحاديث الثلاثة، أن يكون المراد بجميعها واحداً.

ثم نبَّه الشيخ ـ رضي الله عنه ـ على تحقيق ظهور صفات العقل الأول في كل قُطْبٍ كاملٍ بقوله: **في كل عصرٍ له شخيصٌ تجري بأنفاسه الدهور**. يعني: لظهور صفات الحقيقة المحمدية في كل عصرٍ، إمامٌ مستكملٌ الشروط القطبية. تجري بأنفاسه الدهور. أي: يتحكَّم في حركات الوجود وسكناته حَسْبما يقتضيه الكمال الإلهي، خلافةً محمدية.

وكان أول ظاهر بهذا المقام، أبونا آدم عليه الصلاة والسلام. وهو لنا، بحُكْم الوراثة من أبينا. وسيكون آخر من يظهر بهذا المقام، عيسى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٨٢٢) [١/٢٣٦]، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٨٢٦) [١/٢٣٧]، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(١)، (٢) رواه أبو داود في سننه، باب في القدر، حديث رقم (٤٧٠٠) [ج٤ ص٢٢٥] والترمذي في جامعه الصحيح، حديث رقم (٢١٥٥) [ج٤ ص٤٥٧] ورواه غيرهما.

ولما فرغ الشيخ، رضي الله عنه، من تعريفه. أراد أن يصرّح أنه لا يكون في الزمان، إلا لواحدٍ، فقال: **عَيْنه في الوجود فرداً، الواجدُ العالمُ البصيرُ**. أي ذكره على التعيين، أنه يكون فرداً في الوجود، لا منازع له فيه؛ فعيْنه النُّورُ المحمديُّ الجزئيُّ، الذي هو روحٌ. والشيخ رضي الله عنه، عبَّر عنه بالواجد ـ بالجيم ـ لكونه وجده كذلك في سِرِّهِ، وعلمه بإعلام الله إياه، ورآه ببصره ـ فالوجود يتعلق بالإدراك، والإعلام بالسمع، والرؤية بالبصر، فلهذا قال: عَيْنه الواجد العالم البصير.

* * *

ولما فرغ الشيخ من التنبيه على ذلك، استأنف الكلام، ونادى حقيقته؛ فقال: **يا واجداً مَجْدُه تعالى، ليس له في الورى نظيرُ**. إعلمْ أنه ليس كل مَنْ عرف الله تعالى، وُجِدَ عنده تعظيمٌ فمجَّده كما ينبغي له؛ وإنما يحصل ذلك للكُمَّل من أوليائه. ولهذا نبَّه على ذلك من نفسه بقوله: «يا واجداً مَجْدَهُ»، أي عَظَّمه الله تعالى.

ولما كان في المحل مظنةٌ لقول مَنْ يقول له: كأنك تقول إن القطب كالحق، يتصرَّف في العالم تصرُّفه؟! قال في الجواب، دفعاً لذلك السؤال: «ليس له في الورى نظيرٌ» ليزول توهُّم السامع، فلا يطعن في اعتقاد الشيخ.

ويحتمل أن يكون قوله «يا واحداً» بالحاء المهملة، ويكون حينئذٍ «مَجْدُهُ» مرفوعاً على أنه فاعل تعالى؛ فيكون تقديره: يا واحداً تعالى مَجْدُهُ. ويكون الخطاب حينئذٍ للذات الإلهية، التي هي ذاته وذات كل ذات؛ فافهم.

ثم إنه أراد أن يُبيِّن أن ذلك التصريف المنسوب إلى القطب، راجعٌ إلى الله تعالى. فقال: **ليس لأنواره ظهورٌ، إلا بنا؛ إذ لنا الظهور**. أراد بالأنوار: الصفات والأسماء الإلهية التي لا ظهور لها، إلا بوجود الخَلْق. لأنه يستحيل ظهور الرازق ولا مرزوق، والخالق لا مخلوق، والقادر ولا مقدور عليه، إلى غير هذه المعاني، مما لمقتضى الأسماء والصفات؛ ولهذا قال: **ونحن مَجْلى لكل شيءٍ يظهر في عينه الأمور**. الضمير في عينه، يرجع إلى «مجلى». والمراد: نحن مظهرٌ لكل شيءٍ، تظهر الأمور في عين ذلك المظهر؛ أي تبدو فينا كُلُّ الأمور، لأنَّا مجلى كل شيءٍ ومظهره، لأن الحقَّ الذي هو أصل جميع الأشياء، إنما ظهر بنا من حيث ذَوَاتِنا وأعْيَانِنَا؛ فبنا تصوَّر، وفينا ظهر. فنحن: محل انجلاء كل شيءٍ وظهوره.

إعلمْ، أيَّدنا اللّهُ وإيَّاك، أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ لَفَّ في هذه الأبيات جميع ما أراد نشره في هذا الباب. ولما أراد التنبيه على عظم هذا الباب قال: **إعلم أيَّدنا الله**

وإياك بروح القدس، أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب. هو الباب الجامع لفنون الأنوار الساطعة، والبروق اللامعة، والأحوال الحاكمة، والمقامات الراسخة، والمعارف اللدنية، والعلوم الإلهية، والمنازل المشهودة، والمعاملات الأقدسية، والأذكار المنتجة، والمخاطبات المبهجة، والنَّفَثات الروحية، والقابلات الرَّوْعية. وكل ما يعطيه الكشف، ويشهد له الحق الصرف.

التأييد، هو المَدَدُ. وروح القدس، هي الحقيقة الإسرافيلية التي تظهر على هياكل المحقِّقين، لتقدُّس أرواحهم من نقائص أحكام البشرية وغيرها. و«من» زائدة؛ فتقديره: إن هذا الباب أشرف أبواب الكتاب. لكونه هو الباب الحاوي لفنون ـ أي لجنس ـ الأنوار الساطعة، وهي البوادي والبواده التي تفجأ العُبَّاد والزُّهاد من مطالعات أنوار عجائب الملكوت.

والبروق اللامعة، هي عبارة عن مبادىء ظهور أنوار التجليّات؛ وهي لأهل البداية. والأحوال الحاكمة؛ يعني على المريدين: كالشوق، والوَله، والقلق، والحزن، والقبض، والبسط، وأمثال ذلك. والمقامات الراسخة؛ للسالكين: كالرضى، والتفويض، والزهد، والمراقبة، والمحاسبة، وأمثال ذلك. والمعارف اللدنية؛ للعارفين: وهي العلوم الواردة عليهم من قِبَل الحق بلا واسطة، لأنها من لدنه تعالى.

والعلوم الإلهية؛ هي ما أدركه المحقِّقون من المعلومات، على حقيقة الاتصاف بالصفة العلمية الإلهية. . فهي من عين علم الله بذاته وبمخلوقاته. والمنازل المشهودة؛ يعني مقامات الأولياء في الله تعالى، من الغوثية والفردية والبدلية، وغير ذلك. والمعاملات الأقدسية؛ هي التي من شأن الملامتية في جميع أحوالهم وحركاتهم. . ولأجل ذلك جعلها «أقدسية» ولم يجعلها «قدسية» لأنهم ذاتيُّون، فكل ما يُنسب إلى الذات من حيث هو ذات، يُسمى «أقدسياً» وكل ما يُنسب إلى ما ينزل عن التجلي الذاتي ـ كتجليّات الأسماء والصفات ـ يُسمى قدسياً.

والأذكار المنتجة؛ التي هي من أوراد الصوفية، أهل الاستقامة على الطريقة والشريعة. والمخاطبات المبهجة؛ التي هي لأرواح الملائكة من الحق تعالى، فيما يخصُّ كلامهم على العموم، ولأرواح عباد الله على الخصوص. وقد شرحنا طرفاً منها، في كتابنا المُسمى «بالناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قَدْر النبيّ ﷺ» فافهم.

والنُفْثات الروحية؛ هي التي من شأن سادات الملائكة على التخصيص، ونُودي لهم أن يلقوا على مَنْ أراد الله تعالى من عباده؛ فالنفث هو الإلقاء، وهو للأنبياء وحيٌ، وللأولياء إلهامٌ. والقابلات الروعية؛ يعني بالقابل: الكون، وبالروع: النفس. يُريد بذلك: المظاهر الموجودة من نَفَس الحق فيه. وكُلّ ما يعطيه الكشف؛ يُريد: من العلوم التي هي من وراء أطوار العقل والنقل، فلا يُدرك إلا بالكشف. وما شهد له الحق الصرف؛ يعني عُلِمَ بالكتاب والسُّنة، وحُكْمُ العقل السليم.

فجمع هذا الباب، أصناف العلوم المتعلّقة بالحق والخَلْق، وما في الوجود سوى ذلك، فحوى جميع علوم الوجود. ثم نبّه الشيخ ـ رضي الله عنه ـ على إحاطة هذا الباب بجميع ما في كتاب الفتوحات، فقال: **ضَمَّنْتُ هذا الباب ما يتعلّق بأبواب هذا الكتاب مما لا بد من التنبيه عليه، مرتَّباً من الباب الأول إلى آخره** ـ يعني آخر الكتاب ـ **فمن ذلك**، أي فمن بعض ما تضمّنه هذا الباب من العلوم المذكورة: **سر الإمام المبين**؛ وهو الروح الذي تكلّم عليه في الباب الأول من الفتوحات، وهو حقيقة الختم؛ وهي اللطيفة الذاتية المتعيّنة في الصورة الجزئية، بالكمالات الكلية.

فالسرُّ هو اللطيفة المذكورة؛ والإمام المبين هو الروح الإضافية، وقد عبّر عنها بقوله: **الإمامُ المُبَيِّن هو الصادق الذي لا يَمِين**. الفرق بين الروح الإضافية والسرّ، أن السر هو اللطيفة الذاتية بنظره إلى الكمالات الإلهية، من غير اعتبار المظهر. والروح الإضافية، هي عين تلك اللطيفة الذاتية، لكن باعتبار المظهر وإضافته إلى الظاهر فيه.

وإنما سُمِّيَ السرُّ سِرًّا، لأنه تحذيةٌ بسرِّ الربوبية المحضة، تحقيقاً لما تقتضيه الذات الإلهية. وأدب الموطن يقتضي عدم الإفشاء بذلك. والحِكَمُ المُسماة إنساناً وآدمياً وعبداً، لمقتضياته الذاتية له، اللازمة لصورته الناقصة المباينة للكمال، لئلا يلزم التناقض بين حاله ومقامه، إذ ليس ذلك من الشؤون الكمالية. فكتمه لذلك المعنى من عين أوصاف الرتبة الكمالية فجعل ذلك التحذّي سراً لا جهراً، لما يقتضيه الكمال من صفة الحق، وأدب المقام اللازم للخَلْق.

ثم تكلّم على تلك اللطيفة بعبارةٍ أخرى؛ فقال: **مَجْلَى ما أحاط به العلم، وتشكّل فيه الكيف والكم**. هو ـ أي الروح ـ محلُّ انجلاء العلم الإلهي. يعني أن الروح المُقدّسة، التي هي عينُ الروح الإضافي والسّرُ الذاتي؛ هي عين العقل الأول المعبّر عنه بالقلم الأعلى. ولهذا كان مجلى المعلومات الإلهية، مما هو معنى: كالصفات والأعراض، أو صورة: كالذوات والجواهر. وعن ذلك عبّر بما «تشكّلَ الكيفُ فيه».

ثم تكلَّم عل تلك اللطيفة بعبارة أخرى؛ فقال: **وجلت به الأعراض، وفعل بالإرادات والأغراض، فانفعلت به الأوعية المِرَاض.** أراد أن يُبيِّن أن تلك اللطيفة هي الروح الإنسانية، التي هي المدبِّرة للجسم، فهي جوهرٌ يحلُّ العَرَضُ فيه، ويفعل في عالمه وفي تدبير جسمه بالإرادة متى اختار، وتنفعل له الأجسام التي تحت تدبيرها. . وإنما سمَّاها الأوعية المراض، لأن الأجسام كالأرواح، من حيث أنها عين الحق؛ فلنقصان تحققها في الظهور بالصفات الإلهية التي تظهر في الأرواح، سُمِّيت مراضاً. لأنها ليست في صحة اعتدال الأرواح.

فلما فرغ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ من العبارة عن أطوار هذه الروح، تكلَّم عنها عند نهايتها في الرتبة الكمالية. لأنه رضي الله عنه، كان هو الإنسان الكامل، وهذه العلوم التي يوردها في كتبه قاطبةً، مستفادة له، أخذها من روحه، حسبما ذكر ذلك على الإطلاق في الباب الأول من الكتاب؛ فقال يصف حالتها في الكمال: **النور الباهر وجوهر الجواهر.** يعني: الروح الكامل، هو النور الباهر. يريد بذلك، صفات الألوهية، لأن الذات ظلمةٌ، والصفات نورٌ.

واعلم أنه مَنْ لا يكون في نفسه ذاتاً ساذجاً يقبل معناه الانطباع بكل صورةٍ من صور الوجود، سواء كانت تجليات إلهية أم عينيات كونية أم حِكَميات علمية؛ لا يمكنه تحقيق الاتصاف بالصفات الإلهية، ولا يستطيع أن يُبرز بالفعل ما هو فيه بالقوة، ولا ينطلق بالشأن الكُلي، لكونه مقيَّداً بالحصر الجزئي. وعن ذلك الانطباع بصورة كل صورة، معنىً عبَّر عنه بأنه «جوهر الجواهر» ثم شرحه، وأوضح ما أبْهمه وفتحه؛ فقال: **يقبل الإضافات الكَونية، والاستتارات الغيبية، والأوضاع الحِكَمية، والمكانات الحُكْمية، رفيعُ المكانة، كثيرُ الاستكانة، عَلَمٌ في رأسه نارٌ، عبرةٌ لأولي الأبصار.** يعني: أن روح الإنسان الكامل، يقبل جميع أحكام الظهور والبطون. . فكنَّى عن أحكام الظهور، بالإضافات الكونية. وعن أحكام البطون، بالاستتارات الغيبية ـ والاستتارات بالتاء المثناة من فوق والغيبية بالغين المعجمة ـ وهو العالم المقابل لعالم الشهادة؛ يعني: إنه مع تمكينه بعالم الغيب، شهاديٌّ، ومع تحقُّقه بعالم الشهادة، غيبيٌّ. فهو في الآنِ الواحدِ والساعة الواحدة: ظاهرٌ بوصف الحقِّ والخَلْق، قابلٌ لحُكْميهما.

وكنَّى عن ترتيب وضع الحكمة في الأكوان، بقوله «والأوضاع الحِكَمية» بتحريك الكاف. وكنَّى عن المكانة الإلهية التي قبلتها هذه الروح الكاملة، بقوله «والمكانات الحُكْمية» بإسكان الكاف. فالإنسان «رفيع المكانة» لأنه موصوفُ الصفاتِ

الإلهية. «كثير الاستكانة» إلى ما هو له من ذلك الجناب. «عَلَمٌ في رأسه نارٌ» أي: هي عَلَمٌ على الذات الإلهية. «في رأسه النارُ» الموقدة التي تطلع على الأفئدة، المعبّر عنها بالجلال والعظمة والقهر والكبرياء، فهي الرياسةُ الإلهيةُ التي هي آخرُ شيءٍ يخرج من رؤوس الصِّدِّيقين، أي تظهر عليهم في نهايتهم؛ لأن الاتصاف بالعظمة والكبرياء والقهر، لا يكون إلا في الكمال. ومن ثَمّ، هلك الرجل الذي نظر إلى أبي يزيد ـ وقد كان يرى رَبَّه كل يومٍ فلا يضرُّه شيءٌ ولم يصبه سوءٌ ـ لأنه كان يرى رَبَّه على قَدْر قابلية نفسه، فاستطاعَ الثبوت عنده لذلك، فظهر عليه أبو يزيد بالعظمة والهيبة ـ ومن وراء قابليته ـ فهلك لأن قابليته لا تبلغ قابلية أبي يزيد، فما استطاع الثبوت عنده. ولذلك قال فيه إنه ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤] وقد شرحنا في هذه النبذة، جميع ما حواه هذا الباب من كتاب الفتوحات، فافهمْ.

* * *

الباب الثاني

هَيْهَاتَ.. أنَّى يَسَعُ الكَوْنُ ذَلِكَ!

قال الشيخ: ومن ذلك، أي ومن بعض ما تضمَّنه هذا الكتاب من العلوم المذكورة: **سِرُّ الظرف المودع في الحرف**. سِرُّ الظَرف، هو المعاني الكمالية التي أودعها في الحرف. والحرف هو الاسم والصفة الإلهية؛ وقد شرحنا ذلك في كتابنا «الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قَدْر النبيِّ ﷺ» وقلنا فيه إن الحروف على ثمانية أطوارٍ:

ـ حروفٌ حقيقيةٌ؛ وهي أعيان الأسماء والصفات.

ـ وحروفٌ عاليةٌ؛ وهي ذوات معلومات العلم الإلهي، المعبَّر عنها بالأعيان الثابتة في العلم الإلهي.

ـ وحروفٌ روحيةٌ؛ وهي الأرواح النورية التي أظهر الله بها هذا الوجود، كما أظهر الكلمات بالحروف الملفوظة.

ـ وحروفٌ صوريةٌ؛ وهي جوانح هذا العالم الكُلِّي وجوارح الإنسان، بالحُكْم الجزئي. وقد فصَّلنا في كتابنا الموسوم «بقطب العجائب وفلك الغرائب» كل ما يختصُّ بجوارح الإنسان من الحروف، وقِسْ على ذلك ما يضاهيه من العالم الكبير.

وقد ذكرنا مضاهاتها في كتابنا الموسوم «بالناموس الأعظم والقاموس الأقدم، في معرفة قَدْر النبيّ ﷺ» فتفطّن لذلك، والله الموفّق.

ـ وحروفٌ معنويةٌ؛ وهي حركات الأشياء وسكناتها، ينشأ منها حروفٌ، يتركب من تلك الحروف كلماتٌ مناسبةٌ لحال ذلك المتحرّك، كالإنسان في حال قيامه، يتركب منه صورة ألف؛ وهي في حال منامه صورة الباء، إلى غير ذلك. حتى أنه يتصرّف صاحب هذا العلم، بحركات جسمية كما يتصرّف بالحروف، إن كان عارفاً بكيفية التصرُّف بها.

ـ وحروفٌ حسيةٌ؛ وهي ما تُشاهد رقماً وكتابةً.

ـ وحروفٌ لفظيةٌ؛ وهي ما تشكّل في الهواء من قَرْع الريح، الخارج من الحلق على مخارج الحروف.

ـ وحروفٌ خياليةٌ؛ وهي صورة تلك الحروف في نَفْس الإنسان، عند تعقُّله لها.

وكُلُّ نوعٍ من أنواع هذه الحروف، ظروفٌ لِسرٍّ إلهيٍّ. أي مظهرٌ لظهورٍ كماليٍّ، أودعه الله بتجليه عليه، حين خلقه من المحتدِ المقتضي لذلك، بحكم ما لذلك المحتدُ من معنى الجمال أو الجلال أو الجمع أو الكمال.

ولما كانت الأسماء والصفات، حاملةً لما فيها من شؤون الذات الظاهرة عليها لذي التجليات؛ قال: **الظرفُ وعاءٌ، والحرفُ وطاءٌ**. يعني بالظرف: الألوهية المفهومة عند إطلاق اسم الله على ذات واجب الوجود تعالى، عند اعتبارك لما يُوصف به من الكمال والجمال والجلال. فالاسم ـ أعني مفهوم هذه الحروف ـ محلٌّ لتلك الكمالات المعبَّر عنها بحقائق الأسماء والصفات. وعاءٌ، أي: الألوهية حاملة للمعاني الكمالية الإلهية. والحروف ـ يعني الإنسان ـ وطاءٌ، أي مظهرٌ لتلك المعاني، **تختلف صورته وتحكم سورته**، يعني: الألوهية تختلف صورتها بحسب تعيُّنها في كل فردٍ من الكُمَّل الأفراد، كما ظهرت في إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلَّم أجمعين، وفيمَنْ سواهم من الأنبياء والأولياء على الخصوص، بالتعيين والوجود، بل في كُلِّ ذرَّةٍ من ذرات الكائنات على العموم بالحكم والشهود، فهي على اختلاف صورها ومظاهرها، واحدة العين، لا تعدُو فيها من حيثها. وإلى ذلك أشار بقوله «وتحكم سورته» ولهذا قال: **هُوَ**. يعني الظرف الذي عبَّرنا عنه باسم الله ـ وإن شئت قلت الحرف الذي عبَّرنا عنه أنه الإنسان الكامل ـ **مَغْنَى المَعَانِي**. يصحُّ أن يكون «مغنى» بالعين المعجمة، فيكون تعبيره: أنه محل المعاني الكمالية. ويصحُّ أن يكون

بالعين المهملة، فيكون معناه: أن الاسم «الله» معنى معاني الأسماء والصفات، أي مفهوم جميع الكمالات الإلهية. لأن الألوهية هي **المظهر لاختلاف الأشكال والمباني**.

المباني ـ بالباء الموحدة من تحت ـ تعني: أن الألوهية، التي هي حقيقة الأسماء والصفات، هي التي أظهرت صور الأشكال الخَلْقية والأوضاع الكَوْنية. لكونها آثار تجليات «السبع المثاني» التي هي أمهات الظهور وأئمة المظاهر الحَقِّية، فهي الحياة والعلم والإرادة والقدر والسمع والبصر والكلام. وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى لنبيِّه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]. والمراد بالقرآن العظيم، ما ترجع إليه هذه الصفات. فكانت الألوهية ـ وإن شئت قلت روح الإنسان الكامل ـ جامعةً للمظاهر الخَلْقية والمظاهر الحَقِّية عموماً على الإطلاق.

ولهذا قال: **يحوي الله وجوده**. أي يحيط وجود الإنسان الكامل واسم الله، بجميع معاني الألوهية تفصيلاً وإجمالاً. **ويغني عن شهود الحق شهوده**. أي: شهودك للإنسان الكامل يُغنيك عن شهودك للحق المطلق. ويحتمل أن يكون المراد: إن شهودك لمعاني الألوهية ـ باستحضارها في ذهنك وتعقُّلك لها، يُغنيك عن مطالعة ما نُقل إليك بالكتاب والسُّنَّة من العلوم والمعارف، التي هي حقٌّ لا ريب فيه. يعني: أنك تنال بدوام حضورك مع معاني الاسم الإلهي، وتعقُّلك له بحكم ما يقتضيه من الكمالات؛ تصل إلى ما لا يُنال، وتصل إلى ما لا تصل إليه بواسطة النقل والعقل؛ على أنهما حقٌّ.

ولما بيَّن حقيقة الإنسان الكامل، من حيث أمره الكُلِّي؛ أراد أن يكشف عن كيفية تقلُّبه في الأطوار الكلية التي تتحقَّق بها له، حقائقُ ما هو منطوٍ فيه من الألوهية المحضة، فقال **منازله معدودة**. وهي سبعة أطوارٍ، لا بد لكل كاملٍ أن يقطع تلك المنازل، حتى يبلغ درجة التحقيق.

الطور الأول «التوحيد الصرف» لا بد للوليّ أن يقطع مسافة الفرق، حتى يحصل في حقيقة الجمع، فلا يشهد ولا يسمع ولا يعلم شيئاً سوى الله تعالى، وهو ما دام فانياً، لا يسافر من هذا المنزل.

فإذا بَقِيَ بالله، سافر إلى الطور الثاني، فيحصل في حقيقة جمع الجمع. وفي هذا المشهد، يفنى مَنْ كان باقياً بالطور الأول، ويبقى مَنْ كان فانياً، فيتحقَّق حينئذٍ بالوحدة المحضة، ويضرب له مثلاً على الرقيم الحامل للمعاني الكمالية بكأسٍ ملآن خمراً، فشُرب الخمر، ورُمي بالكأس، فانكسر وانعدم.

ومن هذا المنزل، يسافر إلى الطور الثالث ـ وهو طور السذاجة المحضة الذاتية الصرفة ـ فيقبل بحقيقته وهيئته، التصوُر بكُلِّ صورةٍ من صور التجليات، ومعنى من معاني الأسماء والصفات، وبكُلِّ هيئةٍ وحالةٍ وشكلٍ وحُكم من سائر الموجودات. فيكون عين كل شيءٍ، على ما هو عليه ذلك الشيء. ويكون متصوّراً في نفسه بصورة ذلك الشيء، يرى نفسه فيه بنفسه، على التفصيل؛ جمعاً وفرادى، ظاهراً وباطناً، حقًّا وخلقاً، كَوْناً وبَوْناً.

ومن هذا المنزل، يسافر إلى الطور الرابع. فيُعطى مفاتيح الغيب، وهي الأسماء التي أظهرت صور الكائنات من الغيب إلى الشهادة. فهي مفاتيح لأقفال خزائن الغيوب، وهي أسماء الأفعال التي كانت المؤثِّرة في ظهور عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ويسميها الشيخ: المفاتيح الثواني. وفي هذا الطور، يسبح في فلك الأسماء والصفات ـ في كل اسمٍ وصفةٍ على حدته ـ حتى يعلم مقتضياتها، على ما هي عليه في محلها.

ومن هذا المنزل، يسافر إلى الطور الخامس. فيُعطى مفاتيح غيب الغيب ـ وهي أمهات الأسماء، وأئمة الصفات ـ فيصرفها بالذات، ويتحقَّق بها صورةً ومعنىً في جميع الأوقات. ومَنْ وصل إلى هذا الطور، لا يتوارى عنه مشهوده بحالٍ أصلاً، ولا يجوز عليه الاستتار قطعاً. وهذه الأسماء، هي التي يسميها الإمام رضي الله عنه بالمفاتيح الأُوَل؛ فيتحقَّق العبدُ بالاتصاف بها.

ومن هذا المنزل، يسافر إلى الطور السادس؛ فيستكمل التحقُّق بالأسماء الذاتية والنعوت الصفاتية والأوصاف الفعلية، ويتعيَّن في الظهور بها جملةً وتفصيلاً. وفي هذا المنزل يتدرَّع بالهيبة، ويتوَّج بالعظمة؛ فتكون له. فلو نظر ـ بنظر نفسه البشرية الإنسانية ـ إلى جبلٍ بالقهر، لتَدَكْدَكَ من هيبته، وتلاشى لعظمته. فكيف له لو رأى ذلك بحقيقة الإلهية. هَيهَات أنّى يسع الكون ذلك! بل لا يتجلّى عظمته ـ كما هو له ـ إلا عنده، وفي علمه. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] يعني: كُلُّ ما سواه لا يستطيع أن يقدِّره، فيعظِّمه بذاته لذاته؛ لأن الكون وجودٌ مقيّدٌ، فلا يستطيع لشيءٍ من ذلك. فلو لمحت بارقةٌ من عظمة جلال الله تعالى على الأكوان، لأعدمتها بالعين والحُكم جملةً وتفصيلاً.

ومن هذا المنزل، يسافر إلى الطور السابع، المعبَّر عنه بنزول الحق في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا. وعندها يطلع الفجر، وتظهر شمس الكمال على

سائر أعضائه الجسمانية ـ على حسب ما كان لروحه وقلبه ـ فيكون جسمه روحاً، وقلبه عقلاً، بالعين والحكم والوجود جملةً وتفصيلاً وهذا معنى قوله ﷺ: «لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[1].. فافهم!

وما بعد هذا المنزل، إلا العجز والحيرة في التجليات التي لا نهاية لها. وهذا العجز، عين الكمال والقدرة. وهذه الحيرة، عين الثبوت. ونهاية ما يعبّر به عن هذه الحيرة وهذا العجز، بأن يقال: إنه يجد كمالاته الإلهية، التي هي له، على ما هي عليه من عدم النهاية التي يعجز العلم عن الإحاطة بها، من حيث أنها لا نهاية لها. فبالنظر إلى هذا العجز، قال عليه الصلاة والسلام: «لا أحصي ثناءً عليك..»[2] وبالنظر إلى ما هو من كمال الصفة العلمية له تعالى، قال: «أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

ولتحقُّق روح الإنسان الكامل بالحقائق الإلهية، قال: **آثاره مشهودة**. يعني: آثارُ الإنسان الكامل مرئيةٌ بالعين، لأنه يُحيي الموتى، ويميت مَنْ شاء من الأحياء، وينبىء الناس إذا شاء بأسمائهم وأفعالهم وبما يأكلون وما يدّخرون إلى يوم القيامة. **كلماته محدودة**. يعني: أنه يقف بالكلام على حدّ الشريعة، فلا يخرج منه بلسان القُدْرة، عن سياج الحكمة، بل يؤدي حَقَّ العبودية بظاهره، كما أدّى حَقَّ الربوبية بباطنه. **وآياته بالنظر مقصودة**. يعني: أنه في نفسه لنفسه، يتجلّى متى شاء بما شاء فيما شاء. فكَنَّى بالآيات عن التجليات الإلهية، بحكم الأسماء والصفات؛ يقصد منها: الظهور بما شاء، والبطون بما شاء. وإلى تحقيق ذلك أشار بقوله: **أعطي مقاليد البيان، فأفصح وأبان**. يعني: أنه أُوتي التمكين بالبيان ـ أي بالظهور ـ فأفصح، وأظهر كلماته. «**وأبان**» عن المعاني بإرادة ذاته.

وسوف أُنَبِّهك على علم شريف قد رمزه الشيخ في ذلك من وجه، وصرَّح به من وجه. وهو أن جميع ما شرحناه لك في صفة هذه الروح الشريفة، من أطوار المعاني المذكورة هنا؛ إنما هو من حيث كون الإنسان حرفاً من حروف أحد الأنواع الثمانية المذكورة في تقسيم الحروف. فاعتبر مثل جميع هذه المعاني المذكورة

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢)، (٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

وكمالها، لكل حرفٍ من حروف كل نوعٍ من الأنواع الثمانية؛ لأن الحروف «وطاء» أي محل ظهور الأسرار الإلهية. والحروفُ كلها مَرَائِي يظهر فيها معنى السرّ الإلهي، لكنْ له في كل طورٍ حكمٌ مخصوص ومشهدٌ منصوص وأثرٌ منفرد، وبنسبه تحقُّقه، على أسلوب عجيب ونمطٍ غريب، لو أردنا أن نتكلم في ذلك، لاحتجنا إلى مجلدات. ولكن تفطّن ذلك وتدبَّره، فكلما قلنا لك «إن الأعيان الثابتة حروفٌ، وكان النوع الإنساني من جملتها» فهو بالنسبة إلى بقية الحروف ألِفٌ. فاعتبر ذلك المعنى لكل ألِفٍ من أنواع الحروف الثمانية؛ كالعقل الذي هو ألف الحروف الروحية، فإنه يجمع العلوم والخصوصيات كلها، كما يجمع الإنسان الكامل. وكالألف الرقميّ، فإنه يجمع المعاني المودعة في الحروف كلها، كما يجمّل جميع الملفوظات ويوصلها إلى مَنْ أمره الله به. فاعتبر هذا المعنى، في كل قسم من هذه الأقسام الثمانية، بما يناسب ذلك العالم، ترى عجائب وغرائب من أسرار الله تعالى، فقد فتحت لك باباً إليها. واستعنْ في تحقيق ذلك، بما ذكره الشيخ في الباب الثاني من الكتاب، عند ذكره مراتب الحروف اللفظية وعوالمها وأطوارها وخواصها وما أودع الله تعالى فيها من العجائب والغرائب، مما يطول شرحه. وسوف أُنَبِّهَكَ في الأبيات المذكورة هنا، على ما يعينك على معرفة ذلك، إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ: **فمنه نثرٌ، ومنه نظمٌ، ومنه أمرٌ، ومنه حُكْمٌ.** إن للتجليات الحقيقية، التي هي للإنسان الكامل، نثرُ تجلياتٍ ذاتية منفردة، غير متعدِّد، ليس لكل تجلٍ إلا اسمٌ واحدٌ. ومنه نظم تجليات صفاتية، يجمع كُلُّ تجلٍ أسماءً متعدِّدة وصفاتٍ متغايرة؛ كتجلي القدرة - مثلاً - يجمع جميع تجليات الأفعال، وكذلك تجلي الإرادة، وكذلك تجلي العلم، وكذلك تجلي الجمال، وكذلك تجلي الجلال وتجلي الكمال، إلى غير ذلك من تجليات الصفات والأسماء التي لها الهَيْمنة على ما تحتها. ولهذا قال «فمنه أمرٌ» أي، مما يصدر من تجلياته، أمرٌ بوجودٍ أو تكوينٍ، أو غير ذلك من أوامر الحق تعالى على عباده. «ومنه حكمٌ» نافذٌ لا يتغيَّر في العالم، لأنه الحقُّ المتعيِّنُ؛ هذا معناه.

ولما كان ذلك للإنسان، الذي هو حرفٌ من الحروف العاليات؛ كذلك هو للألف الذي هو حرفٌ من الحروف الحقيقية أو الروحية أو المعنوية أو الصورية أو اللفظية أو الرقمية أو الخيالية. ألا تراه يقول: «فمنه نثرٌ، ومنه نظمٌ» إن اعتبرته في الحروف اللفظية، وجدت الأمر كذلك، «ومنه أمر ومنه حكم» كلفظة أفعل؛ وهذه حروفٌ مركبةٌ. ولفظة قول وفعل، وغير ذلك، كلها أمرٌ؛ وكلٌ منها حرفٌ واحدٌ غير

مركّبا! فاعتبر جميع الباب في أطوار الحروف، تقع على كنزٍ من كنوز الله تعالى. وإنما ضربنا على تبيُّن كل ذلك، لئلا يفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب، والمراد بذلك سعادتك، وإنما هي في معرفتك لنفسك، فلأجل ذلك تكلّمنا على الإنسان وحده.

وقال في اللفظية والرقمية والخيالية أنها: **ابن الإمام المبين**. الذي هو اللوح المحفوظ، لأنها تبرز بتلك الحقائق، كما تبرز المعاني من القلوب. **لا، بل هي أبوه**. يعني: هي أصلٌ لتلك الحقائق المكتوبة في اللوح، لأنه لا بد من حروفٍ كتبها القلم في اللوح حتى قُرئت. وتلك الحروف، ولو كانت على غير هذه الهيئة، فهي عين هذه الحروف الرقمية؛ لأنها متلوّةٌ مقروءةٌ، ولو بلا معنى؛ فلا يخرجها ذلك عن كونها حروفاً، فهي ـ أعني الحروف ـ أصلٌ للمعاني الموضوعة في اللوح المحفوظ، إذ بها **الكمال والتمام**. لكونها مشهودة صورةً ومعنىً، والموضوع في اللوح المحفوظ إنما هو مشهود معنىً لا غير؛ فجمعت هذه الحروف، حقائق المعنى والصورة.. وليس ذلك لتلك، فافهم.

ولكون الإنسان الكامل، كلّي التحقيق؛ قال: **إذا أسهبَ ذهب**. أسهب ـ بالسين المهملة ـ يعني إذا طوّل وأطنب ـ يُقال «أسهب في الكلام وأطنب» إذا طوّل في الحديث. المراد: إذا تمادى وأطال نظره إلى حقائق صفاته ـ التي لا نهاية لها، وكلها كمالية ـ ذهب عن حكم الكون، فلا يُسمّى خَلْقاً بوجهٍ من الوجوه، لأنه قد ذهب عن العالم وما فيه بالكلية؛ فليس هو من العالم، ولا هو فيه.

وإذا أوجز أعجز. الإيجاز ضِدُّ الإسهاب، يعني: أن الإنسان إذا اختصر في نفسه، فوقع نظره في صفاته، إلى نظره لذاته؛ أعجز غيره عن دركه. وإن شئت قلت: أظهر كُلَّ أمرٍ مُعْجِز وإن اعتبرت ذلك في الحرف اللفظي والرقم، فمعناه ظاهر.. ومن ثم قال: **فصيح المقال، كثير القيل والقال**. يعني: أن الإنسان الإلهي الكامل، ظاهر التكوين بالكلمة؛ كثير الكلام، لأن الموجودات كلها كلمات. **تختلف أشكاله ومعارجه**، لأنه متصوِّر بكل صورةٍ خَلْقية، ومتحقّق بكل حقيقةٍ إلهية؛ فهو مختلف الأشكال والمعارج. **ويخفى على المتَّبع أثره ومدارجه**. لأنه من وراء قوة أطوار الكون، فيخفى أثره على كل متّبع، لأنه لا يبلغه حدُّه، ولا يصل إليه دركُهُ. واعتبرْ تلك المعاني في الحروف، فالحرف اللفظي تختلف أشكاله على حسب وضع كل واضع بكل لغةٍ. و«يخفى على المتّبع أثره» يعني: على المُقتفي له، معرفة ما جعل الله في كل حرفٍ من أثرٍ ـ بالخاصية والطبع والفعل ـ في كل معنىً وصورة،

مما لكل حرفٍ من التصرُّف. لأن الحرف، وإن شئت قلت الإنسان الكامل: **كائنٌ بائنٌ**. يصحُّ أن يقول عن الإنسان الكامل إنه «كائن مع الحقّ، بائنٌ عن الخَلْق» ويصح أن يقول «هو كائنٌ مع الخلق، بائنٌ عما هم فيه» كما أن الحرف كائنٌ في رتبة الإحاطة، بائنٌ عن حكم القيد بالإحاطة؛ لكونه يفعل بحقيقته في الغيب، فهو غير محصورٍ على ما يشهده من صورته.

ومن ثَمّ، قال عن الحروف ـ وإن شئت قلت عن الإنسان الكامل، بل هو الإنسان ـ **راحلٌ قاطنٌ**. أي راحلٌ عن المراتب الخَلْقية، قاطنٌ في المراتب الإلهية. **استوطن الخيال، فأقام في عالم**؛ معناه: وهو محل العلم بالله. **وافترش الكتاب**؛ يعني: لما كان في باطنه ساكناً مع ربه؛ افترش الكتاب، يعني اتخذ الصفات والأسماء الإلهية، فرشا له في موطن كماله، يتقلّب عليها.

واستوطأ اللسان، بتحقيق القدرة والإرادة، في نفوذ الأمر بكلمة: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] حيث يريد. واعتبر هذه المعاني للحروف الرقمية واللفظية والخيالية؛ فالخيالية مستوطنة الخيال، لأنها لا تكون إلا في عالم الخيال، فلا تخرج عنه؛ والرقمية افترشت الكتاب، لأنها متلوّة، فلا تكون إلا في الصحف؛ واللفظية استوطأت اللسان، فلا تظهر إلا بواسطته. وقِسْ على ذلك، كُلَّ الأقسام الثمانية. وقد شرحنا في هذه النبذة، جميع ما حواه الباب الثاني من كتاب الفتوحات، في الحروف وغيرها؛ ونبّهناك على ما هو المقصود من ذلك.

* * *

الباب الثالث

ما ثَمَّ أَمْرٌ فَاصِلٌ بَيْنَ اللّهِ وبَيْن العَالَم

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب من العلوم المذكورة: **سِرُّ التنزيه النزيه**. التنزيه النزيه، هو تنزيه الحقّ تعالى لنفسه، كما يُعْلمه لذاته. وهذا التنزيه لا يقابله تشبيه، بل هو منزّهٌ عن مقابلة التشبيه. فتنزيهه لا نعلمه ولا نعقله، لأن كل تنزيه نُنزّهه به، إنما هو منوطٌ بضدّية التشبيه. فهو إذن يتعالى عن تنزيهنا له، فتنزيهه منزهٌ عن التنزيه والتشبيه.

ولأجل ذلك، قال: **التنزيه تحديد المُنزّه**. لأنك عندما تريد أن تنزّهه عن معنى التشبيه، ليحصل بذلك ما تريده من التنزيه؛ وبهذا الفعل تحصره على ما يضاد

التشبيه، فتحدُّه وتقيُّده بذلك المعنى؛ فالتنزيه تحديدٌ وتقييدٌ. **والتشبيه تثنية المُشَبَّه**، لأنك إذا قلت «هو كذا وكذا» على التقييد بصورةٍ واحدةٍ دون غيرها، **فقد أشركته مع** تلك الصورة في معنى واحد؛ وهذا هو عين التثنية. فكلا الأمرين على انفرادهما، خطأٌ؛ والصواب جمعهما بحيث أن تنزِّهه في عين التشبيه، وتشبِّهه في حكم التنزيه.

وإلى هذا أشار ونبَّه بقوله: **فيا ولدي**. يخاطب تلميذه بدر الحبشي بقوله، ليسمع غيره: **تَنَبَّهْ وتَفَكَّرْ فِيمَنْ نَزَّه وشَبَّه**. يعني: تأمّل فيمن جمع بين الوصفين؛ **هل حاد عن سواء السبيل؟** كلمات الاستفهام إذا صدرت عن العارف بما يُسْتَفْهِم عنه، تكون إما نفياً وإما إثباتاً؛ لأن المتكلِّم يعرف المعنى، فلا فائدة للاستفهام. و«هل» هنا بمعنى النفي، يعني: أن كل مَنْ جمع بين التشبيه والتنزيه، ما حاد عن سواء السبيل. أي، ما مال عن طريق الله، الذي هو صراط الله في نفسه. وذلك هو المعبَّر عنه بتجليات ذاته في حقائق أسمائه وصفاته؛ فما حاد عن ذلك، مَنْ كان على هذا الوصف؛ لأنه عرفه على ما هو الأمر عليه.

وهل هو من علمه في ظِلٍّ ظليل. ولفظة «هل» هنا بمعنى الإثبات، وتقديره: نعم هو من علمه أن الحقَّ هو المُنَزَّهُ في التشبيه والمُشَبَّهُ في التنزيه، في ظِلٍّ. يعني: في سترٍ مانعٍ، مستورٍ بصفات الحق عن صفات الخَلْق؛ ولهذا كان ظِلُّه ظليلاً، وإلى هذا أشار القائل، بقوله:

تَسَتَّرتُ فِي دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِه ... فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلُ الأَيَّامَ مَا اسْمِيَ مَا دَرَتْ ... وَعَنْ مَوْضِعِي لَمْ تَدْرِ أَيْنَ مَكَانِي[1]

فمن هو بهذه الصفة على التحقيق: **هو في خير مستقرٍ وأحسن مقيل**. لأنه يتنعَّم بتجليات ربِّه بين الصورة والعروج والمعنى. فلا يخرج عنها بوجهٍ من الوجوه، بل يجدها في كل حالٍ من الغيبة والحضور، والنزول والصعود، والعروج والهبوط؛ على اختلاف الظهور، فأمره نورٌ على نور.

ولما فرغ الشيخ من تعريف حال من له الجمع، رجع إلى تعريف حال من له الفَرْق، ليميِّز بينهما. فقال: **المُنَزِّهُ يُخَلِّي**، بالخاء المعجمة، يعني: يخلِّي الحق عن

---

(١) هذان البيتان هما للشاعر العباسي أبي نواس الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمي ولد في الأهواز سنة ١٤٦ ونشى في البصرة، وتوفي في بغداد سنة ١٩٨هـ. والبيتان من البحر الطويل، وتفعيلته:

طويل له دون البحور فضائل ... فعولُن مفاعيلن فعولن مفاعلن

صفة التشبيه، **فيعطِّله. والمُشَبِّهُ يُحَلِّي**، بالحاء المهملة، المعنى: أنه يُلبس الحقَّ حلية غيره، فيقصره على صورة الخَلْق. **والذي بينهما لا يُخلي ولا يُحلي**. يعني: والعارف الذي بين التشبيه والتنزيه، لا يخلي الحقَّ عما هو له، ولا يحليه بصورة غيره. **بل يقول: هو عين ما بطن وظهر، وأبْدر واستتر**. يعني: إن العارف بوصفه، يصف البطون والظهور؛ فبصفة الكمال الحكمي له البطون، وبصفة تعيُّن الوجود له الظهور. فهو ـ أي الحق ـ عينُ ما أبدر، أي صارت بدراً بالكمال والجمال والجلال؛ وعينُ ما استتر، أي استتر بالملباسات الخَلْقية. **فهو**، أي الحقُّ تعالى. **الشمس والقمر، أي العبد والرب**. والعالم له، أي لله تعالى. **كالجسد للنفس**، وكالصورة للمعنى، فالخَلْق صورة الحقّ، والحقُّ معنى الخلق؛ فلا خلو للمعنى عن الصورة، ولا للصورة عن المعنى.

ولهذا، قال: **فَمَا ثَمَّ إلاّ جمْعٌ**. يعني: ما ثم ظهورٌ للحقّ إلا بالخَلْق، ولا ظهور للخَلْق إلا بالحقّ؛ فلا وجود إلا لصورة الجمعية بينهما، لأن الله عينُ كلِّ موجودٍ. ولمّا لم يوجد في الوجود خلقٌ خالٍ عن وجود الحقّ، ولا حقٌّ خالٍ عن وجود الخلق، قال: **ما في الكون صَدْعٌ**. الصدع في اللغة، هو الشقُّ الفاصل بين جزئيْ الجدار؛ استعاره هنا، للثنوية المُتَوَهَّمةِ بين الخلق والحق. وتقديره: ما ثَمَّ أمرٌ فاصلٌ بين الله وبين العالم، بل هو عينُ العالم والعالم عينه! فإن تَوَهَّمْتَ فاصلاً، فإنما هو من حيث وَهْمك لا غير. لأن العالم له، كهيكل الإنسان للنفس الناطقة.

إن لم يكن الأمر كذلك. يعني: إن لم تكن حقيقة الأمر، على أنه عين العالم، وأن العالم عينه. **فما ثَمَّ شيءٌ هنالك**، فما ثَمَّ شيءٌ زائدٌ على العالم وحقيقته؛ فاترك ما توهمته من أنه خارجٌ عن حقيقة العالم، وأن وجوده أمرٌ زائدٌ على الكون؛ واعلم أنه عَيْنك وأنت عَيْنه.

والأمرُ موجودٌ. يعني: ذات الباري تعالى ـ أحديُّ العين ـ «موجودٌ» في جميع ما يتصوَّره من صفتي الحقّ والخَلْق، فهو واحد العين في كثرة تعدادات الأين. **لا بل وجود**. نَفَى الكثرة، لأنه عين الوجود المطلق، فلا تعدُّد في الوجود. ومن هنا نَكَّرَهُ فقال «وجود» ولم يقل «الوجود» لكون الكثرة عين الواحدية، من غير تعقُّل مباينةٍ، لأنه عين التباين والتطابق.

والحُكْمُ. يعني: آثار الصفات الإلهية في الذوات المخلوقة. **مشهود لا بل شهود**؛ يعني: أنها مرئيةٌ وهي عين الرؤيا التي نراها بها، فهي المشهود والشاهد

والشهود. **وبالنِّسَبِ صَحَّ النَّسَبُ.** أي: بالربوبية وُجدت العبودية، وبالعبودية وُجدت الربوبية، فلا تعقُّل لإحداهما إلا بالأخرى ـ كالمعلومية؛ لا تحقُّق بها إلا بالعَالِمية، ولا تحقُّق للعَالِمية إلا بالمعلومية. . وكِلا المرتبتين لا وجود لهما إلا بتعقُّل الصفة العلمية، ولا وجود للصفة العلمية إلا بتعقُّلهما. وكلُّ واحدٍ من العلم والعالِم والمعلوم نسبةٌ؛ فما وُجدت النَّسَب إلا بالنِّسَب.

ولولا المُسَبِّبُ، ما ظهر حُكْمُ السَّبَبِ. المسبب يجوز أن يكون بالفتح والكسر؛ فإن قلنا بالكسر، كان اسم الفاعل، وتقديره: «لولا الله الذي أوجد الأسباب، لما ظهر حكمها» وإن قلنا إنه بالنصب، كان اسم المفعول، يعني: «المُسَبَّبُ، الذي هو مفعول السبب، أعطي السبب حكم السببية» فكما أن القلم، الذي هو سبب الكتابة، علةٌ لوجود المكتوب؛ كذلك المكتوبُ علةٌ لنسبة السببية إلى الكتابة، كما أن كلاً منهما علةٌ لنسبة السببية إلى الكاتب. وكذلك الكاتب علةٌ لنسبة السببية إلى القلم، كنسبة السببية إلى المكتوب ـ فبالمسبِّب ـ الذي هو فاعل ـ وبالمسبَّب ـ الذي هو مفعول ـ ظهر حكم السبب عنهما؛ فكان هذا به فاعلاً. وكان هذا به مفعولاً. . فارتبط الأمر بعضه ببعض. ولهذا قال: **فإن قلت:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] زال الظلُّ والفيء، والظلُّ ممدودٌ بالنص، فعليك بالفحص.

إعلم أيدنا الله وإياك، أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ ذكر في غير موضع من مؤلفاته، أن الكاف في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] يحتمل أن تكون زائدة، فيكون المعنى: ليس مثل الحق شيءٌ، لأنه عين الوجود كله، فلا مثل للوجود ـ لأنه لو كان للوجود مثلٌ، لصحَّ أن يُطلق عليه اسم الوجود ـ فالواجد أمرٌ واحدٌ، لا مثل له على الحقيقة.

ويحتمل أن تكون الكاف تشبيهيةً، فيكون معناه: ليس كالإنسان، الذي هو مِثْلُ الحقِّ، شيءٌ. لأن الإنسان نسخة الحق والخَلْق، والله تعالى عين الحق والخَلْق. فهو ـ أي الإنسان ـ موصوفٌ بكل ما يوصف به الحق، ومنعوتٌ بكل ما يُنعت به الخَلْق. فهو المثل الذي لا مثل له، وهذا معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فإن غلب عليك شهود الأحدية المنزّهة عن الكثرة، انعدم وجود الخلق عندك، وزال الظلُّ والفيء. لأن العالم ظلُّ الله، فيزول؛ لأنك لم تشهد شيئاً سوى الوحدة المحضة، فلا ظهور للظلِّ، لأن الظلَّ يحتاج إلى نورٍ مفيض وظلامٍ قابل للصورة المتوسطة بين النور وبين المحل، وبظهور الوحدة، ينعدم ذلك؛ فلا كثرة بوجهٍ من

الوجوه، لقولنا إن الوجود شيءٌ واحدٌ في كل موجود، فلا تعدُّد للوجود، وإذن فلا تعدُّد للموجودات. لأن الوجود على الحقيقة، هو عين الموجودات؛ فظهرت الواحدية، وبظهورها بطنت الكثرة، فزال الظل والفيء المعبَّر به عما سوى الله.

والسوى موجودٌ، والظلُّ ممدودٌ. **فعليك بالفحص والبحث**، لتجمع في الحقيقة بين القول بأن الأمر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وبين أنه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وحينئذٍ تجمع بين التنزيه والتشبيه. فعليك بالكشف عن هذه النكتة، لتجدها إن شاء الله تعالى، وقد شرحنا لك في هذه النبذة، جميع ما في الباب الثالث من كتاب الفتوحات؛ والله الموفق، لا ربَّ غيره.

* * *

الباب الرابع

مَا هَذِهِ المظَاهِرُ المشْهُودَةُ، إلاَّ عَيْنُ الظَّاهِرِ فِيهَا؛ وَهُوَ اللَّهُ

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمَّنه هذا الباب. **سِرُّ البدء اللطيفُ، وما جاء فيه من التعريف**. يريد: سِرُّ بداء العالم. واللطيف صفة سِرِّ البداء، والضمير راجعٌ إلى السِّرِّ.

وسوف أُنبِّهك على مقدمةٍ، تعرف بها معنى كل ما يرد في هذه النبذة التي جمعت جميع ما في الباب الرابع من كتاب الفتوحات المكية. وذلك: أن الله تعالى لما أحبَّ في شأن ذاته البطوني، أن يظهر في كنزيته، لما يقتضيه شأن ذاته الظهوري من الظهور على حكم شؤونه الذاتية. فتشكَّل وتصوَّر بأشكال العالم وصوره ونسبه وإضافاته وأحكامه جميعاً؛ صورةً ومعنىً، بطوناً وظهوراً، فناءً وبقاءً، عيناً وحكماً، وجوداً وشهوداً. فمثله تعالى في هذا المعنى ـ ولله المثلى الأعلى ـ كمثل النفس الناطقة في هيكل الإنسان، إذا حدَّثت نفسها بنفسها، فتكون هي المتكلِّمة والسامعة، وهي عين كلامها؛ لأنها تتصور لنفسها بصورة مفهوم ما تكلَّمت به. فهي الكلام والمتكلِّم والسامع، وكذلك الحق تعالى، عينُ العالم المُسمَّى بالخَلْق، وعين الخالق له المُسمَّى بالحق. يبدءان لأسمائه وصفاته، ترتيباً تقتضيه كل صفة، لما هي عليه في شأنها. فلكل اسمٍ مرتبةٌ في ظهور العالم، فهو ناظرٌ إلى العالم، من حيث تلك المرتبة والمقتضى، لإيجاد الكون من جهة تلك الصفة. فنقول ـ مثلاً ـ إن الصفة العلمية أول متوجهةٍ لإيجاد العالم، وإن الصفة الإرادية أول متوجهةٍ لتخصيص كل

شيء على ما هو عليه من الهيئة والترتيب، وإن الصفة القادرية أول متوجهةٍ لظهور العالم في الحِسّ. لكن توجُّه كل صفةٍ من هذه الثلاثة المذكورة، على ترتيب ذكرها؛ فالعلم له التقدُّم، ثم الإرادة، ثم القدرة، وعلى ذلك فقِسْ واحكمْ، إلى أن تستوفي جميع الأسماء والصفات؛ فإن أحكامها المتعلِّقة أعيانٌ وجودية، يسمعها الكاشف ويراها. فاعتبر ذلك حتى تستوفي مقتضياتها، إلى أن يتمّ الأمر بظهور كل المراتب الكونية، علوًّا وسُفلاً، لطيفاً وكثيفاً.

* * *

فتنبَّه لهذه المقدمة، تفهم جميع ما أراده الشيخ - رضي الله عنه - بقوله: **إن العالم علامةٌ**. يعني: أنه علامةٌ على موجده تعالى، يُعرف هو - سبحانه - بالعالم - وتحقيقه؛ أن كلَّ وجهٍ من وجوه العالم، راجعٌ إلى صفةٍ من الصفات الإلهية. وتقدير ذلك: إن العالم من حيث كونه موجوداً، أثرُ صفة اسمه المُوجِد؛ ومن حيث كونه على هيئةٍ مخصوصةٍ، أثر اسمه المريد؛ ومن حيث كونه بارزاً - من غير مادةٍ، ولا تعيُّن - أثر اسمه القادر؛ ومن حيث كونه مخلوقاً، أثر اسمه الخالق؛ ومن حيث كونه مرزوقاً، أثر اسمه الرازق؛ ومن حيث كونه مرئياً، أثر اسمه البصير؛ ومن حيث كونه مسموعاً، أثر اسمه السميع، وقِسْ على ذلك؛ فهذه الأسماء هي المُظهرة لأعيان هذه الآثار، وإن شئت قلت: هذه الآثار هي التي أظهرت هذه الأسماء. وعلى الحقيقة، هو واحدٌ في واحد لواحد.

فلهذا قال: **يَدُؤُهُ مِمَّنْ فهو علامةٌ على مَنْ**. يعني: إذا كان الحقُّ عينُ العالم، فمن أين بدأ العالم؟ بل هو في نفسه، كما كان عليه. فإذن: ليس هو علامةٌ على شيءٍ، لأنه ما ثَمَّ غيره. فلا يُقال إن الشيء الواحد، يكون علامةً على نفسه لنفسه. إذ لا مغايرة في نفسه لنفسه، فلا بدأ، ولا ظهر، ولا بطن، ولا استتر؛ إذ الحقُّ هو الكل. وإلى هذا المعنى، أشار بقوله: **ما استتر عينٌ حتى يظهر كونٌ**. يعني: ما استترت ذاته، ليظهر غيره.

ولما تحقَّق الشيخ - رضي الله عنه - بشهود واحدية الحق تعالى في كثرة الموجودات، وعاين كثرة تنوعات تجلياته في الأسماء والصفات؛ قال: **رأينا رسوماً ظاهرة**. أراد بالرسوم، الأسماء والصفات التي هي الظاهرة في العالم بحقائقها وآثارها. ورأينا **ربوعاً**. يعني بذلك، المظاهر الكونية. **دائرةً**، فانية لظهور الحق تعالى. **وقد كانت** تلك المظاهر الكونية، التي يعبَّر عنها بالسوى والعالم. **قبل ذلك**.

أي، قبل شهودنا فيها أحدية الحقّ. **عامرةً**، لكوننا كنا نراها، ونظنُّ أن لها وجوداً؛ فكانت من حيثنا، وجوديةً **وناهيةً وآمرةً، فسألناها: ما وراءك يا عصام؟**.

تكلّم الشيخ على لسان حال الوجود. فكلُّ مَنْ نظر بعين اليقين، وجد الله وراء الموجودات، من حيث استنادها إليه الاستناد الإيجادي؛ وإن شئت قلت: من حيث كونها مظاهر، وهو الظاهر. ولأجل ذلك، قال إن الحال أجابه؛ **فقالت: ما يكون به الاعتصام**. الاعتصام هو الاحتفاظ، فلولا نظر الله في العالم وجُوده، لعُدِمَ العالم؛ فبالله عِصْمة العالم وحِفْظه.

ولهذا قال: **فقلتُ ما ثَمّ إلا الله وحَبْله، وما لا يسع أحداً جَهْله**. يعني: ما هذه المظاهر المشهودة، إلا عين الظاهر فيها، وهو الله. وحبله الذي به الاعتصام، هو صفاته الحاكمة بتنوع الموجودات. فشبَّه الاعتصام بالحبل، للارتباط المعقول بين الأثر والمؤثر؛ وعن ذلك كَنَّى بقوله «ما لا يسع أحداً جهله» لظهور آياته في مصنوعاته.

فقال؛ يعني: لسان العالم. **لولا الكثائف**؛ يعني: المخلوقات التي هي حُجُبٌ على صانعها، لأن الحجاب من طبعه أن يكون كثيفاً، وإلا لما حَجَبَ. فلولا هذه الحُجُبُ الكثيفة، **ما عُلمت اللطائف**. أراد باللطائف؛ حقائق الأسماء والصفات. **ولولا آثارها**. الضمير راجعٌ إلى اللطائف، يعني: ولولا آثار الأسماء والصفات. **ما ظهر مَنارها**. أي منار الكثائف التي هي المخلوقات على الإطلاق؛ يعني: لولا العالم، ما عُرفت أسماء الحق وصفاته؛ ولولا أسماء الله وصفاته، لما ظهر العالم.

فمن خَبَتْ نارُهُ، انهد مَنارُهُ. يعني: فكلُّ مظهرٍ سكنت ناره ـ لبطون تجلي الاسم الحاكم عليه ـ انهدم وفَنِيَ من حيث الحِسُّ، فصار **له حضرة القُدْس**، على ما عليه؛ لأنه كان ثَمّ قبل ظهوره، وصار إليه بعد بطونه. فما ازدادت حضرة القدس بدخوله فيها، وما انتقصت بخروجه عنها.

وما يتمُّ به إلا الحِسُّ. يعني: وما يتمُّ بوجود الموجودات، إلا مراتب الحِسِّ. **لولا الحِسُّ**. أي، العالم المحسوس الدالُّ على الله. بشهود الأثر. برؤية أثر الأسماء الإلهية، والصفات الكمالية، فلولا ذلك. **ما عُرف للطيف خَبرٌ**. اللطيف هو الله، وتقديره: لولا الموجودات، لما عُرف المُوجد سبحانه وتعالى.

ولما فرغ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ من الكلام على العالم عموماً، خَصَّص بذكر الإنسان. فقال: **النَّفْسُ عَمْياءُ**. يعني عن شهود كمال الله تعالى. **للقُرْبِ المُفرط**.

حيث يقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] لأنه سبحانه عينُ النفس، فجهلت النفسُ حقيقتها من أجل ذلك القرب، ومن أجل **ما تشهده الحواس** من كثائف الحُجُبِ. وظاهر الأمر: فصارت النفس بواسطة هذين الأمرين، جاهلةً بالله طَبْعاً.

وهي، يعني النفس. **الصَّمَّاء عن إدراك الوسواس**. أراد بالوسواس، الخواطر الإلهية التي ترد على النفوس بالفطرة. وإنما صُمَّت آذان النفوس عن إدراك هذه الخواطر، لأن المادة حاكمةٌ على النفس بالعقل والمقتضيات البشرية، فامتنعت عن سماع ما يرد من الحق لأجل ذلك. **وهي الخرساء فلا تفصح**. يعني: أن النفس صارت خرساء بالطبع الحيواني، فلا تُفصح عن سِرٍّ من الأسرار الإلهية المودعة فيها، لكونها بشريةً بحكم الطبع في قيد الجسم وحَصْره.

وهي. يعني النفس؛ **العجماء**. إنما اعتجمت النفس بفراقها ما في قابليتها من الكمالات؛ وإنما فارقته لعدم اشتغالها به، بسبب ما أخذها عنه من الأمور الحِسِّيَّة. **فلا تعقل** النفس ما هي حاويةٌ له من الكمالات الإلهية **فتوضِّح** وتُخبر عنه.

ولولا اشتغالها عن المعنى بالحِسِّ، لظهر بالفعل ما هو باطنٌ فيها بالقوة من أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال. وإلى ذلك أشار بهذه الأبيات:

سَرَى اللَّطِيفُ مِنَ اللَّطِيفِ فَنَاسَبَهْ ... وَبَدَا لَهُ مِنْهُ الخِلافُ فَعَاتَبَهْ

اللطيفُ الأولُ هو النفس، واللطيف الثاني هو ذات واجب الوجود. يعني: أن النفس على الحقيقة، مخلوقةٌ من نور ذات الواجب بذاته؛ ولهذا وُجدت فيها من الكمالات، جميع ما وصفت الحقُّ به - وقد بيَّنا كيفية مضاهاتها للحق والخلق على التفصيل، في كتابنا الموسوم «بإنسان عين الوجود، ووجود عين الإنسان الموجود» فمن شاء أن يعلم ذلك، فليُطالع فيه - وحوت من النقائص جميع ما في الوجود؛ فجمعت من كلا وصفي الحقِّ والخلق، ما استوعب الأمر على ما هو عليه. ولهذا قال «فناسبه» لأن الحقَّ تعالى جامعٌ لذلك، فحصلت المناسبة بين النفس - التي هي روح العالم الإنساني - وبين الحقِّ، الذي هو روح العالم.

وأما قوله «بدا له منه الخلاف» فهو إشارةٌ إلى ما يقع للنفس من النزول والركون إلى المقتضيات الأرضية التي لأجلها يكون العتاب، وإليه الإشارة بقوله «فعاتبه»، ثم قال:

وَتَـوَجَّـهَـتْ مِـنْـهُ إلـيـه حُـقُـوقُـهُ فَـدَعَـاهُ لِـلْـقَـاضِـي الـعَـلِـيـمِ وَطَـالَـبَـهْ

يعني: واقتضى الحال أن يتوجَّه على النفس حقوقٌ كثيرة لموجدها، إذ للصانع حقٌّ على مصنوعه لا ينكره العقل طبعاً، والقاضي هو العقل، فعبَّر عن إرجاع الحقِّ للنفس إلى العقل ـ لتعرفه النفس ـ بقوله «فدعاه للقاضي العليم» فطالبه، بأداء حقِّ الصانع عليه. ونَعَت القاضي ـ المعبَّر به عن العقل ـ أنه عليمٌ، لأن العقل من طبعه درك الأمور كلها، لما أودع الله فيه من مكنون علمه، كما سبق بيانه. فعندما رجعت النفس إلى مقتضى العقل، عَرَفَتْ بحكم العقل، أن نزولها إلى مقتضى حكم الجسم وَبَالٌ عليها، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: **نَادَى عَلَيْهِ**. يعني: نادى العقل على النفس. تَجَرُّساً. التجريس، التعزيز على سبيل الإهانة تهكُّماً إذ العقل يقضي أن يكون: **هَذَا جَزَاء مَنْ عَامَلَ الجِنْسَ البَعِيدِ وَصَاحَبَهْ**. الإشارة بقوله «هذا» إلى النزول والانحصار والتقييد والعجز والاحتباس بحكم سجن الطبع، فذلك جزاء كل نفسٍ اشتغلت بالظاهر عن حكم الباطن؛ لأنها تألفه وتنسى ذلك المعنى طبعاً. فما أنزلها عن التحقُّق بحقائق الكمال، إلا فعلها، فإذن نزولها جزاء ما صنعت.

وعن الجسم ومقتضياته، عبَّر بالجنس البعيد. فنزول النفس إلى العجز، لأمرين: أحدهما، العمل بمقتضى الجسم؛ والثاني، مصاحبة الجسم. فالأول عارضٌ، والثاني لازمٌ. فينبغي أن يسعى المرء أولاً في زوال حكم العارض، حتى إذا انفكَّ عن الجسم، حصل له اللازم أيضاً، فيخلص إلى الكمال المُطلق من كل وجه.

وعن الرجوع عن المقتضيات البشرية عبَّر بقوله:

لِـيَـتُـوبَ مَـنْ سَـمِـعَ الـنِّـدَاءَ فَـيَـرْعَـوِي عَـنْـهُ وَيَـعْـلَـمَ أنَّـهُ إنْ جَـانَـبَـهْ
تَـظْـفَـرْ يَـدَاهُ بِـكُـلِّ خَـيْـرٍ شَـامِـلٍ فَـاسْـتَـعْـمَـلَ الإرْسَـالَ فِـيـهِ وَكَـاتَـبَـهْ

اللام في «ليتوب» للتعليل، يعني: إنما نادى العقل مجرِّساً للنفس، لتحصل منها التوبة، وهي الرجوع عن حكم الجسم ومقتضاه، إلى الحقِّ؛ فتلزم مشاهدته منها فيها ـ ولتعلم النفس، بما أوضحه العقل، أنها إن جَانَبَتْ الجسم ـ المعبَّر عنه بالجنس البعيد ـ فتركت العمل بمقتضاه، وخالفت أحكامه؛ ظفرت يداها بالصفات الإلهية، التي هي في قوة النفس وقابليتها، فتستعمل الاسترسال في ذلك بشهودها لحقائقها

الحقيقية؛ لأنها عين المعبَّر عنه بالذات الإلهية، وإلى النفس أشار بقوله: **هو اللطيف في أسمائه الحسنى، وبها ظهر الملأ الأعلى والأدنى** يعني: أن النفس المعبَّر عنها بالذات، ظاهرةٌ في الأسماء الحسنى والصفات العليا التي ظهرت بواسطتها الموجودات؛ فالضمير في قوله «بها» راجعٌ إلى الأسماء الحسنى. وقد شرحنا لك في أول هذه النبذة، عن كيفية كونها توسَّطت في إيجاد هذا العالم.

وعبَّر عن ذلك بقوله: **لما تجَاوَرَتْ تحَاوَرَتْ**، الأول بالجيم، والثاني بالحاء المهملة. يعني: لما حصلت المجاورة بين الأسماء الإلهية والصفات الربانية، لأنها كانت في محلٍ واحدٍ فخاطبت بعضها بعضاً بحكم المقتضي؛ وعن ذلك عبَّر بقوله «تحاورت». وقد قلنا لك إنها طلبت ظهور آثارها، وإن الكلام على الحال. وذلك واقعٌ صورةً في الآزال، عُلِمَ تحقُّقه.

وعن لسان حالها المُطالِب بمقتضى آثارها، عبَّر بقوله: **ولما تكاثرت، تسامرت. فرأت أنفسها على حقائق، ما لها من طرائق**. يعني: رأت الأسماء والصفات أنفسها على حقائق مختلفة، فلتلك الحقائق ظهورٌ في الوجود. فكان الأمر: **سماؤها ما لها من فروج**. كَنَّى عنها بالسماء، لأن السماء لها العلو على الأرض، كما أن المؤثِّر له العلو على ما أثَّر فيه؛ وإنِّي بقوله ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝﴾ [قٓ: ٦] عن عدم ظهور مؤثراتها في ذلك الموطن، فاقتضاه حالها؛ وعن ذلك عبَّر بقوله: **فطلبت أرضاً تُنبت فيها من كل زوجٍ بهيج**. يعني: طلبت الأسماء والصفات الإلهية، المعبَّر عنها بالسماء، أرضاً؛ أي محلاً تظهر فيه آثارها. وعن ذلك عبَّر بقوله ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝﴾ [قٓ: ٧] يعني: فاشتاقت أن تُظهر هذه الأسماء والصفات، كُلُّ معنى لطيف من معاني آثارها، في الموجودات.

فقالت. أي لسان حال الأسماء والصفات عند اقتضاء الظهور: **المفتاح في النكاح**. يعني: فتح باب الإيجاد، بظهور الكون في تناكح الأسماء، أي توالُج بعضها في بعض، لظهور هذا العالم. فعبَّر عن دخول حكم الأسماء بعضها على بعض، بالنكاح.

ولا بدَّ من ثلاثة، ليصح النكاح المعنوي. ولأجل ذلك بُني عليه النكاح الصوري، فلا يصحُّ النكاح في ظاهر الأمر، إلا بثلاثة. وهم: **وليٌّ، وشاهدَيْ عدلٍ، لهذا القضاء الفصل**. فالثلاثة المتصدرة المشروطة في نكاح الأسماء الإلهية، هم: الاسم الذاتي، وهو الله. والاسم الرحمٰن، لأنه يرحم أسماءه وصفاته فيُظهر آثارها. والاسم الرحيم، لأنه به ترحم الموجودات. هذا نِكاحٌ أقدسيّ، وثَمَّ نكاحٌ قُدسيّ!.

والثلاثة المشروطة في الأسماء، لنكاحها الثاني وتداخُل بعضها في بعض لظهور العالم كله ـ أعلاه وأسفله، أوله وآخره ـ هو: العلم والإرادة والقدرة. فالعلم هو محل ظور المعلومات، ومنصّة وجود الأسماء والصفات. والإرادة هي المخصِّصة لكل موجودٍ، على حكم ما يقتضيه حال الكمال. والقدرة هي المُبرزة له من العلم إلى العين، فهذه شروط صحة النكاح المعنوي الأسمائي الأزلي الأبدي.

فالنكاح الأول، لتعلُّق الأسماء والصفات بحقائقها، ولكمال ظهورها. والنكاح الثاني، لظهور الموجودات وتحقيق بروزها، ليتم به مقتضى الكمال، فافهم.

ولما كانت الكلمة الإلهية، التي هي مجلى العلم والإرادة والقدرة، وهي: كُنْ، متعلقةً بالمعلوم، لشمول معاني الكمال له تعالى، لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فالشيء هو معلومٌ بالصفة العلمية، ومرادٌ بالصفة الإرادية. وكلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] هي المتعلقة بعين ذلك المعلوم في العلم، وصفة القدرة هي المُخْرجة له من العلم إلى العين. عبّر عن ذلك بقوله: **فقال العليم**، يعني الصفة العلمية أعطت أنه: **لا بد من كلمة** ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] لظهور هذه الأعيان الثابتة في العلم، وخروجها من محلها إلى العالم العيني.

وعن كلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] عبّر بقوله: **بسم الله الرحمٰن الرحيم**. ومن ثَمَّ قال بعض العارفين: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من العارف، ككُنْ من الله..» وسوف يذكره الشيخ فيما يلي في هذا الفصل ـ إن شاء الله تعالى ـ ولولا أن الكلام يأتي على ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ١] في أثناء هذا الباب، لتحدثنا هنا حسبما أراده الشيخ رضي الله عنه.

فهذا يا وليّ، الشاهدان والوليّ. لما كان الاسم الله، والاسم الرحمٰن، والاسم الرحيم؛ موجوداً في البسملة. أشار الشيخ رضي الله عنه إلى ذلك ـ حسبما ذكرنا ذلك آنفاً ـ فجعل الوليّ هو الاسم الله، والشاهدان هما الرحمٰن والرحيم، على النمط السابق. ففي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ١] سِرُّ النكاحين المعقودين لظهور حقائق الحقّ وحقائق الخلق.. فتأمَّلْ، تُرشَدْ إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ رضي الله عنه: **فهذا**. يعني ما عبّرنا عنه من لسان حال الكمال في الأزل: **كان أول تركيب الأدلة**. أراد بالأدلة؛ المصنوعات وبروزها. يعني: بذلك المعقول آنفاً، كان سبب تركيب المصنوعات وبروزها على لسان العموم. وأما على الخصوص، فالأدلة هي الأسماء والصفات الإلهية؛ لما اقتضاه الشأن الإلهي، من حيث ما هو الأمر عليه، ليكون ذات واجب الوجود، منعوتاً بنعوت الكمال والجلال والجمال.

فركوب كل اسم علماً، على صفةٍ منصّته؛ وتركيب كل صفةٍ منصّةً، على شأنٍ إلهي، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف. ١٨٠] لأن الشيء في نفسه، لا يحتاج إلى اسم يميِّز به نفسه لنفسه. هذا إذا كان ثَمَّ موجودٌ آخر، فكيف إذا لم يكن ثَمَّ غيره؟ فبالأَولى.

ولما لاح هذا المعنى لبصائر المعتزلة، من حيث أنهم لم يشعروا به، ذهبوا إلى أن القِدَمَ للذات فقط، ليس لشيء من الصفات عندهم قَدَمٌ في القِدَم؛ فقالوا بأن جميع الأسماء والصفات الإلهية مخلوقة. وفاتهم نصف المعرفة بالله، كما فات من قال بأنها قديمةٌ على الإطلاق، لقِدَمِ الذات، ولم يجمع بين الحُكْمين، إلا عارفٌ بالله. ولا يكون ذلك، إلا لمن أشهده الله حقائق الأشياء، فعرفها، وعرف مجاليها ـ على ما هي عليه جملةً وتفصيلاً ـ فعرف كيف يُنسب كل اسم أو صفةٍ إلى الله، فيحكم بأنه قديم؛ وكيف ينسبه إليه، فيعرف بأنه ـ أي الاسم والصفة ـ مُحْدَثٌ. ولم يقف على وجهٍ دون آخر، لأن الحقَّ هو الجمعية.

وبعد هذا، عرضت الشُّبَهُ المُضِلَّةُ. يعني: عرضت على العقول أمورٌ، يعطي بعضها الاشتباه بالحقِّ، فضَلَّت أهل تلك العقول عن الطريق الإلهي الذي هو له تعالى. على أن الطريق المُضِلَّة، أيضاً، له وإليه، لكن هذه على العموم وبحكم الوسائط البعيدة، وتلك على الخصوص وبالوسائط القريبة، وقد شرحنا لك في هذه النبذة جميع ما أراده الشيخ رضي الله عنه، ونبّه عليه في الباب الرابع من كتاب الفتوحات.

والله الموفق.

* * *

الباب الخامس

الأَمْرُ دَوْرِيٌّ، يَعُودُ إِلَى مَا بَدَأَ!

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمنه هذا الباب من فنون العلم المشار إليه آنفاً. **سِرُّ كُنْ والبَسْملة، فيمَنْ علَّله**. قد قلنا لك آنفاً، إن البسملة عبارة عن كلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠]، لأن الله تعالى كما أظهر الموجودات بواسطة الكلمة، كذلك أظهر سِرَّ كتابه الكريم بواسطة البسملة. فالكتاب كله، نسخة جميع الوجود؛ والفاتحة نسخة الإنسان، والبسملة نسخة كلمة الحضرة. ولهذا، سَنَّ

رسول الله ﷺ البسملة في ابتداء الأمور، ليكون التقدير فيه: كل فعل يفعله عقيب البسملة، بالله. فمن بَسْمَلَ عند الأكل، كان تقدير حاله أن يقول: بالله أشرب، فلا بد من تقدير الفعل بعد البسملة بلسان الحال، لتعلُّق الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [الفاتحة: ١]؛ و«اسم» زائدة، والمراد الله. كما في قول: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝﴾ [الأعلى: ١] والمراد بذلك: سَبِّحْ رَبَّكَ.

وقد وضعنا للبسملة كتاباً، شرحناها فيه أيام البداية، وسميناه بالكهف والرقيم في شرح ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [الفاتحة: ١]. وهذا الكتاب المذكور، أول كتابٍ صنَّفْناه في علم الحقيقة، فالحمد لمن جعل أول تصنيفاتي في: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [الفاتحة: ١] ليقع كمال النسبة الإلهية في إظهار الحقائق صورةً ومعنى. ولولا ما شرحناه من أمر البسملة، لأوردنا لك ذلك كله، على التفصيل والإجمال، وزبدة الأمر كله؛ رجوعُ أمر جميع أفعال العباد، إلى أنها أفعالٌ لله.

فلذلك: **قال الحَلاجُ، وإن لم يكن من أهل الاحتجاج، بسم الله منك بمنزلة كُنْ منه**. الحلاج رضي الله عنه، هو الحسين بن منصور الحلاج. قال الشيخ إنه ليس من أهل الاحتجاج، لأنه لما تحدّى وقال «أنا الحقُّ» قتله سيف الشريعة؛ فلو امتنع بمقتضى صفات الحق، لم يستطع أن يقتله أحدٌ؛ فكانت حُجَّته ثابتة ودعواه صحيحة عند الغير. كما جرى لأبي يزيد رضي الله عنه في قوله: سبحاني، ما أعظم شأني وأعزَّ سلطاني! وفي قول الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: معاشر الأنبياء، أوتيتم اللقب، وأُوتينا ما لم تؤتوه! وفي قول الشيخ أبي الغيث بن جميل رضي الله عنه: خُضْنا بحراً وقف الأنبياء بساحله! وقوله حين قال له الحِكَمي رضي الله عنه: ما حالك؟ قال: أصبحتُ أُحيي وأُميت، وأفعلُ ما أُريد، وأنا على كل شيءٍ قدير.

فكُلٌّ من هؤلاء السادة، منع بحاله أن يسطو عليه أحدٌ، فأقام حُجَّته. وكان الحلاج دون هذه المرتبة ـ ولو كان على الحقِّ ـ ولهذا أخذته سيوف الشريعة. ولا مؤاخذة على مَنْ قام عليه، لأنهم قاموا بالحق؛ ولو كان حَقُّه أعلى من حَقِّهم.

ونهاية الأمر؛ إن الذين فعلوا هذا الفعل، إذا ظهرت عليهم الحقائق؛ نَكَّسُوا رؤوسهم، وآمنوا بقوله. ولولا الحقيقة، ما أخذته سيوف الشريعة؛ لأنه لما طلب ظهوره بالربوبية في عالم العبودية ـ وذلك أعزُّ من وجود النار في قعر البحار ـ أطلقه لسان الوقت، عن قيد الهيكل الجسماني، ليتحقَّق بما ادعاه في العالم اللائق بتلك

الدعوى، فجرى عليه، ما جرى غيره من الحقائق على الحقائق؛ لئلا يدّعي هذا المقام مَنْ ليس له ذلك. ولو كان متحقّقاً بذلك كمال لتحقُّق، كما كان عليه غيره من الكُمّل المذكورين، لامتنع بحقّ صفات الربوبية عن تلك القِتْلة، كما امتنع غيره.. فكان الحلاّج على بيّنةٍ من الله، ولو لم يكن له شاهد تلك البيّنة؛ وكان مَنْ ذكرناهم من الكُمّل، على بيّنةٍ من الله، ويتلوه شاهد منه.

ولهذا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] يريد بذلك، كناية عن حال المريد إذا تكلّم قبل أوان الكلام؛ وفي المَثَل السائر عند الامتحان يعزُّ المرء أو يُهان. فلكل مقامٍ مقال، لا يصح دعوى المتكلّم عن ذلك، إلا إذا تمكّن فيه.

فلو كان الحلاّج رضي الله عنه، واجد الحقيقة، ما قال غير متمكِّنٍ بالحال؛ فتعجّل وتكلّم، ولو تأمّل في قوله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦] الآية، لكان، كغيره من الكُمّل الذين قال الله في حقّهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] الآية فالكامل يعمل بأمر الله، كُلّ ما يُعلمه الله، والعارف يعمل بالله مطلقاً؛ لا يعلم هذا الأمر المخصوص - الذي يتوجّه من الحقّ إلا الكامل - إلا إذا كان عارفاً كاملاً، وإلا فهو محجوبٌ عنه.

ولما كان الوليُّ فاعلاً بالله، لتحقُّق ذاته بمعنى صفاته؛ كان ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة: ١] منه، بمنزله ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] من الله. إذا قارَنَتْ ذلك منه حركةٌ إراديةٌ لصدور ما يريد في الخارج، كما أن كلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] من الحقّ مقارنة لإرادته ما يكون على الوجه المخصوص المراد.

ولهذا، قال الشيخ رضي الله عنه: **فَخُذ التكوين عنه**. الضمير في «عنه» راجعٌ إلى اسم الله المذكور في البسملة، والمراد: خُذْ علم كيفية التكوين، عن الله المكوِّن؛ فقل للشيء ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] فيكون، كما هو القائل تعالى لكل شيء.

وعن ذلك عبّر بقوله: **فمن تقوّى جأشه**، أي قلبه؛ **واستدار عرشه**، باستوائه بذاته على عرش أسمائه وصفاته؛ **وتمهّد فرشه**، بتمكنه من التحقُّق، صورةً ومعنىً؛ فظهر أثر اسم باطنه على ظاهره، فكان لجسمه جميع ما هو لروحه - التي لها ما للحقّ تعالى - كان متصرّفاً في العالم، تكوّن الأشياء بكلمته لها ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] كرسول الله ﷺ، **قال كُنْ، ولم يُبَسْمِلْ؛ فكان، ولم يحوْقِلْ**.

أشار إلى قوله ﷺ، لشيخ رآه من بعيد: «كُنْ زيداً»[١] فكان ذلك الشيخ زيداً، أخو عمر بن الخَطَّاب، أرسله رسول الله ﷺ، وترقَّب وصوله؛ وحكايته مشهورة[٢]. والمراد: أن مَنْ كان متحققاً بربه ـ روحاً وجسماً، وصورةً ومعنىً ـ تكوَّن ذلك الشيخ فصار زيداً لرسول الله ﷺ، فقال: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] ولم يقل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١] لأن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة: ١] مرتبة العارف، و﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] مرتبة الله، والمحقق هو ﴿ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة: ١] ليس المراد بهذا الاسم غير المحقّق، ولا غير الله تعالى.

وقوله: ﴿فَكَانَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] ضميره راجعٌ إلى ما قاله رسول الله ﷺ: ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] وفاعل «لم يُحَوْقِلْ» راجعٌ إلى رسول الله ﷺ، أي: لم يقل لا حول ولا قوة إلا بالله. لأن ذلك مرتبة العارف الذي رجع إلى الله تعالى بالفناء عن صفات نفسه وأفعالها، بل وعن ذات نفسه؛ والله راجعٌ إلى المحقّق، رجوع العارف إلى الله. فالعارف قائمٌ بالله، والله قائمٌ بالمحقّق. فلهذا، لم يقل المحقّق لا حول ولا قوة إلا بالله، كما يقول المحقّق.

فمن ذاق، من شراب التمكين بالذات في تحقيق إظهار معاني الأسماء والصفات؛ **ضاق** مسلكه، لأنه حينئذٍ يسير بالذات، والذات ظلمةٌ لا طريق فيها لسالك. وإلى هذا المعنى أشار سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني، رضي الله عنه، بقوله:

كُلُّ الأَوْلِيَاءِ لَمَّا وَصَلُوا إلى القَدَرِ وَجَدُوهُ مُصْمَتاً فَوَقَفُوا، إلا أَنَا، فُتِحَتْ لِي فيه رَوْزَنَةٌ، فَوَلَجْتُ فِيهَا، فَدَافَعْتُ أَقْدَارَ الحَقِّ بالحَقِّ..

هذا معنى؛ وإن شئت قلت: من ذاق ألوهية الحقّ في الحقّ، ضاق عن قبوله بحكم الخَلْق بالكلية؛ فإن في ذلك فقدانه للربوبية، إذ ليس من الكمال ترك الربوبية للعبودية، فيضيق المحقّق عن كمال التنزيل إلى العالم الخَلْقي من كل جهةٍ. فإذن: يكون حَقًّا مع حقيقته بالذات، وخَلْقاً مع خليقته بالأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات والنسب والإضافات، فمعيّته مع الحق والخلق، خير معيّة، الحق سبحانه وتعالى! ولم يُقر بهذه النكتة ـ حالاً ـ إلا كامل في هذه الدار، وحقيقة الأمر؛ رجوع الكُلّ إلى هذا المعنى.

---

(١)، (٢) في الحديث «كن أبا خيثمة» انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم (٢٧٦٩) [ج٤ ص٢١٢٠]، وفي صحيح ابن حبان، ذكر الأمر للمرء بترك صدقة ماله..، حديث رقم (٣٣٧٠) [ج٨ ص١٥٥] وروى القصة غيرهما.

وقد أشار الشيخ رضي الله عنه إلى ذلك بقوله: **وإذا التفَّتِ الساقُ بالساقِ: فإلى ربك المَسَاق، وإليه ترجع الأمور، إذ كان منه الصدور**. معناه: إذا التفت والتحقت الذات الإنسانية بالذات الرحمانية، بشهودها أنها عينها - لا غيرها - من كل جهة، وبكل اعتبار، وعلى كل حال، وفي كل وقتٍ على الدوام. فإلى مقام الربوبية المحضة، يكون مساق هذا الإنسان. وحينئذٍ، ترجع إليه - أي إلى الإنسان - الأمور؛ لأنه الحق الذي كان منه البداية والصدور. إذ الأمرُ دوريٌّ، يعود إلى ما بدأ.

ولهذا، قال الشيخ رضي الله عنه: **لا تُبَسْمِل، وقُلْ بكُنْ، مثل ما قاله يكن.** بكن الأولى، بالباء الموحدة. ويكن الأخيرة، بالياء المثناة من تحت؛ وهذا جزاءٌ لقوله: قل. والمعنى: لا ترجع بك إليه، كما هو المقصود في البسملة، بل ارجع بالأمر كله إليك، وقل ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] لما تريده، كما يقوله الحقُّ، يكن ما شئت كما شئت.

فإليه رجوعنا، لا إلينا. أي: فإلى مقام الربوبية رجوعنا، لا إلى مقام العبودية. فالربوبيةُ لازمةٌ لذواتنا، والعبوديةُ عارضةٌ بحكم المحل. وترتيب الحكمة، هو المقتضي للحكمين في المحلين؛ من أجل هذه الذات الواحدة الكاملة بجميع تلك المعاني.

فكن عين الذات الإلهية من كل جهة، وبكل اعتبار، وعلى كل حال، لا تخرج عن ذلك ضبعاً. **تكن**، عينه.. بإظهار الأثر من نفوذ كل أمرٍ، وإدراك كل علم. وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝﴾ [فُصِّلَت: ٣٥].

وقد رمزت لك في هذه النبذة، جميع ما صرَّح به الشيخ في الباب الخامس من كتاب الفتوحات المكية. فتأمله، تُرشدْ بمعرفته إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس

جَرَى بِنَا جَوَادُ البَنَانِ فِي هَذَا البَيَانِ، حَتَّى أَظْهَرَ مَا لَمْ يَخْطُرْ إِظْهَارُهُ فِي الجَنَانِ

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمَّنه هذا الباب من فنون العلم المُشار إليه أولاً. **سِرُّ الروح وتشبيهه بيوح**. الألف واللام في الروح، للعهد - وتقديره: سِرُّ الروح الكلية المُشرقة من الهياكل الجزئية، التي يصحُّ وقوعها

على كل فردٍ من أفراد هذا النوع الإنساني. وتشبّهت هذه الروح ببوح، وهو اسم من أسماء الشمس، والمراد به هنا الحق تعالى، لأنه نور السموات والأرض.

فالإنسان، هو «المِثْلُ» الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، في الأرض ولا في السماء، لكونه نسخةً كاملةً جامعةً شاملةً. وقد صرّحنا في كتاب «الكمالات الإلهية» عن حقيقة هذه النسخة وكيفية معناها، وكشفنا عن ذلك أيضاً على التفصيل ـ بعبارة مبسوطة ـ في كتابنا الموسوم «بإنسان عين الوجود ووجود عين الإنسان الموجود» فمن أراد تحقيق هذه المعرفة، فليكشف عن محلها من هذين الكتابين.. وسأذكر لك من ذلك طرفاً جامعاً، وهو:

إن الله تعالى، لما أحبَّ الظهور من ذاته لذاته، بمقتضى ذاته؛ قَسَّمَ ذاته قسمين ـ من غير تعدُّد في العين ـ فسمى أحد القسمين بالواجب، والقديم، والرب، والفاعل. وسمى القسم الثاني بالممكن، والمُحْدَث، والعبد، والمنفعل.

فأول ما أظهر من ذلك القسم الثاني، مَحَلٌ حكميٌّ سماه بالهباء والهيولى والقدرة؛ لأن العالم كله متحيِّزٌ، ولا بد للمتحيِّز من مكانٍ يحلّه. فإن كان المكان مخلوقاً، فقد دخل في حُكْم العالم، ولا بد له من مكان؛ هكذا إلى أن يتسلسل، أو يدور، أو ينتهي لمحلّ حكم لا يقال إنه خَلْقٌ، (لئلا لغيره)[1]؛ كما أن غيره لا يكون ظرفاً له. فالهباءُ، هو الحقُّ المخلوق، وتقيُّد الحقُّ هنا بالخَلْقية في هذه المرتبة، من أجل ذلك الانقسام.

وهذا المَعْنِيُّ بالهباء، هو الهيولى المعبَّر عند المحقِّقين عنها بالعقل الأول والروح المحمدية والقلم الأعلى. فكانت الحقيقة المحمدية، أولُ مخلوقٍ. وكانت على النسخة الإلهية، صورةً ومعنىً.. أما من حيث الصورة، فكما أن الوجود المخلوق صورةُ الحقِّ، والحقُّ روحه؛ ذلك الإنسان، قد خلق الله فيه نسخة كل شيءٍ من صور الموجودات وحقائقها ـ جملةً وتفصيلاً ـ فهو على صورة الخَلْق، لأن العالم صورته. وأما كونه على النسخة المعنوية للحق ـ أيضاً ـ فلأنك تجدك قابلاً لكل اسم وصفةٍ على التمام والكمال، فقل في الأسماء الذاتية أولاً إنك «أحَدٌ» ذا أحَدِيَّةٍ غيرَ مجهولة في كل شيءٍ، لأنها عبارة عن صرافة ذات الشيء، بالنظر إليه من حيث هو ذاتيٌّ.. فمتى عرفت أنك هو، كانت هذه الأحدية ـ التي ذكرتها لك ـ نفي أحدية

(١) غير واضحة في الأصل.

الواجب بذاته؛ وقِسْ على ذلك. فليس شيءٌ من تجليات الأسماء والصفات، أعلى من تجلِّي الأحَدية؛ ولعزّتها، منع أهل الله أن يكون لغير الله قَدَمٌ في تجلي الأحَدية.

وسِرُّ المنع، أن الأحَديَّة ـ من حيث هي أحَديَّةٌ ـ تقتضي عدم التعدُّد فيها من كل وجهٍ وبكلِ اعتبارٍ، فكيف لِخَلْقٍ فيها قَدَمٌ مع حَقٍّ؟ وذلك مُشعِرٌ بالتغاير والإثنينية، وهذا محالٌ غير ممكنٍ في تجلِّي الأحَدية. فإذا قد صَحَّتْ لك نسخةٌ منها، فبالأَوْلى أن يصحَّ لك جميع ما تحتها من الكمالات المعبَّر عنها بالأسماء والصفات. فأنت الحيُّ، وأنت العليمُ، وأنت القديرُ، وأنت المُريدُ، وأنت السميعُ، وأنت البصيرُ، وأنت المتكلِّمُ. وهذه السبعة، هي أُمهات الكمال وأئمة الأسماء والصفات؛ قد سُميتَ بها ظاهراً، وسوف أكشف لك عن مواقع نجومها باطناً:

● أما الحيُّ؛ فأنت متصفٌ به لأن الحقَّ سبحانه وتعالى، كما أنه عين الوجود الساري في أعيان الممكنات، كذلك أنت سارٍ في أعيان الموجودات بهِمَّتك؛ ألا تراك إذا افتكرت في السماء، كيف تسري روحك فيها؟ وفي الأرض، وفي جميع ما تفكر فيه، أنت كذلك سارٍ فيه بروحك؛ فحياتك هي القائمة بحياة كل ما سرَتْ فيه.

● وأما العلم؛ فأنت متصفٌ به من حيث عقلك، لأنه عين علم الله به وبمعلوماته، فهو المحيط بالحقِّ والخَلْق؛ ألا ترى إلى عقلك، كيف عرفت به الحقَّ والخَلْق؟ فلولا أنه الصفة العلمية الإلهية، لما اتسع لمعرفة الحق تعالى. وسبب ذلك، أنك لا بد أن تُطلق اسم الحق في علمك على شيءٍ، تضيف إليه ما هو للحق من صفات الكمال، وذلك الشيء الذي أطْلَقْتَ هذا الاسم عليه، هو في عقلك معلومٌ لك، وهو عين الحق تعالى، الذي أضَفْتَ إليه ما أضَفْتَ من صفات الجمال والجلال والكمال؛ فلو لم يكن عقلك، عين الصفة العلمية الإلهية، لما ظهر هو فيها؛ لأنه سبحانه ليس له محلٌّ إلا العلم.. وقد عُرِّفْتَ بذلك أسرارٌ كثيرةٌ.

● إن كنتَ من أهل الله، فقِسْ بالإرادة والقدرة على ما ذكرتُ، وتأمَّلْ هل تجد حقيقة هذين الوصفين لك في حال تصوُّرك للأشياء في مُخَيِّلتك وتخَيُّلك، فتتكوَّن كما تريد أم لا؟ ومتى عرفت ذلك، لم تفتك معرفة السميع والبصير والمتكلم منك، وتتحقَّق هذه المعرفة.

فيجب عليك، أن تسعى في زوال الموانع لك عن تحقيق ما تجده من كمالك، ليظهر جسمك بما هو لروحك. فإذن: تصوُّرُ، في العالم وتكوُّنه، ما كنت تصوَّره في العالم الخيالي؛ تستبرزه مشهوداً للحِسِّ، كما كان مشهوداً للخيال، وبذلك تعرف أنك

المعبَّر عنه بمسمى الأسماء الحسنى والصفات العُلى! جرى بنا جَوَادُ البنان في هذا البيان، حتى أظهر ما لم يخطر إظهاره في الجنان، من كل علم لا يسعه الكيان؛ فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما كنا بصدده من شرح هذه الكلمات الحِسَان.

قال الشيخ رضي الله عنه: **أشرقت أرض الأجسام بالنفوس، كما أشرقت الأرض بأنوار النفوس.** لما أظهر الشيخ رضي الله عنه ـ فيما سبق ـ أن الإنسانَ نسخةٌ للحق، أراد أن يظهر كونه نسخةً للخَلْق؛ فشبَّه روحه بالشمس التي هي روح العالم الدنياوي، وشبَّه الإشراق بالإشراق، لأن النفس الجزئية متصرِّفةٌ في الهيكل الإنساني، ومدبِّرةٌ له؛ كما تتصرَّف الشمس في العالم الدنياوي، وتدبِّره على مَرِّ الدهور. وكُلٌّ من النفوس والشموس، عينُ كُلٍّ على الحقيقة؛ إذ هذه الصورة كلها، راجعةٌ للوجه الواحد الظاهر في مرائي مختلفة الأشكال والمقادير.

فلهذا، قال الشيخ رضي الله عنه: **وإنما لم تفرد العين، لأنها ما أشرقت، إلا بما حصل فيها من نور الكون، وإن كان الأصل، ذلك الواحد؛ فليس ما صدر عنه بأمرٍ زائدٍ، فعدَّدته الأماكن، لما أنزل نفسه فيها منزلة الساكن.**

زبدة هذا الكلامه، وخلاصة هذه المسألة: أن الله تعالى، هو المتجلّي بأعيان الموجودات على حسب ما تقضيه قابلية كل هيئةٍ لكل موجود، كما أن الصورة تظهر في كل مرآةٍ بحسب تلك المرآة؛ فاختلفت الصور المرئية لاختلاف المرائي، وحقيقة الصورة واحدةٌ كما أن الحق تعالى واحدٌ متعدِّدٌ بحسب تعدُّد الموجودات؛ وبالحقيقة، لا تعدُّد، لأن الشيء الواحد إذا تعدَّد باعتبارات كثيرة راجعةٍ إليه، هو واحدٌ غير مُتعدِّدٍ في نفسه. وهذه الاعتبارات هي الأسماء والصفات، التي هي أعيان الممكنات، وإلى ذلك، أشار بقوله: **فللحقيقة رقائق، يُعَبَّرُ عنها بالخلائق.**

أطلق هنا لفظ «الحقيقة» والمراد بها: الحقيقة الإلهية. لها «رقائق» أي معاني كمالية، هي أعيان الأسماء والصفات المظهرة لحقائقها في ذوات الموجودات، على سائر النعوت والنسب والإضافات والاعتبارات؛ فهي هويةُ شيءٍ واحدٍ، من كل الوجوه بالذات، وقد شرحنا في هذه النبذة، جميع ما تضمَّنه الباب السادس من كتاب الفتوحات المكية؛ فتأمَّلْ ذلك، أرشدك الله للصواب، وعَلَّمك الحكمة وفصل الخطاب.

❁ ❁ ❁

الباب السابع

الجِسْمُ هُوَ المُظْهِرُ للرُّوحِ، الَّتي هِيَ النُّورُ المُظْهِرُ لِلأشْيَاءِ كُلِّهَا

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمَّنه هذا الباب من أنواع العلوم: **سِرُّ الكيف والكم، وما لهما من الحكم**.

لما كان السؤال بكيف وكم، من لوازم العالم المحسوس، الذي هو منصَّة الأجسام، ومظهر الكثافة والأجرام. عبَّر بهما عن الجسم الكُلِّي ولوازمه، والنفس الكلية وعوالمها. فسِرُّ ظهور العالم الجسماني، هو لتحقُّق الإنسان بالشأن الرحماني، حتى يظهر بالفعل في صورة جزئيةٍ مخصوصة كاملة النشأة، ما هو ثابتٌ بالقوة في حقيقة الوجود الكُلِّي الجامع؛ لتكون تلك الصورة للوجود الكُلِّي، كالروح للهيكل الحيواني، وكالمعنى للفظ، وكالملك للمملكة.. فلهذه الحكمة؛ أولُ ما خَلَقَ اللهُ من عالم الأجسام، العَرْشُ. وجعله محيطاً بالمحيطات كلها، كما يحيط الجسم الإنساني بجميع ما حواه هيكله المخصوص.

واستوى سبحانه على العرش، استواءً مخصوصاً، هو عليه من غير تغيير لشأنه الذي كان له قبل خلق العرش وما حواه. وذلك الاستواء ـ في ضرب المَثَل ـ كاستواء الروح على الجسم؛ فالجسمُ الجزئيُّ عرشٌ جزئيٌّ للروح الجزئية، والجسمُ الكُليُّ عرشٌ كُليٌّ للروح الكلية، المعبَّر عنها بالحقيقة المحمدية من حيث تعيُّنها، وبالحقيقة الإلهية من حيث عينها.

ولا شك أن الكُليَّ صادقٌ على الجزئي. فاعرفْ بما ذكرته لك، من أنت؟ وما محَلُّك؟ تعلم حينئذٍ أن جسمك، بل الجسم الكُليّ: **هو البيتُ المعمور بالقوى**.

القوى، عبارة عن الملائكة الموكَّلة بتدبير العالم الكبير، كما أن القوى الحيوانية موكَّلةٌ بتدبير جسمك؛ الذي هو العالم الصغير بالنسبة إلى الجرم، لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٥٧] الآية، وأما بالنسبة إلى القدرة؛ فإنك أنت العالم الأكبر، والسموات والأرض بما فيها، هو العالم الأصغر، لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فالسموات بما أظلَّت، والأرض بما أقلَّت، مُسخَّرَةٌ لك. لكونك أعزَّ قدراً، وأعظم فخراً؛ ولهذا تفنى السموات والأرض يوم القيامة، وأنت باقٍ إلى أبد الآبدين. فجسمك الذي هو البيت المعمور، بقواك التي هي ملائكة تسخيرك؛ هو العرش الكريم.. إذ لا موجود أكرم على الله منك.

والجسم الكُليُّ هو العرش المحيط، لأنه جامعٌ للموجودات الجسمانية، وليس وراءه إلا عالم الجبروت. وسيأتي الكلام على العرش العظيم والعرش المجيد، في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله.

إعلم أن الشيخ رضي الله عنه، أراد أن يبين لك في هذه النبذة، سِرَّ خَلْق العالم. فبدأ بذكر العرش، لأنه أول مُتَعَيِّنٍ في الصورة، وإليه الإشارة بقوله: **والذي كان عليه الاستواء.**

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] وقد كان الشيخ رضي الله عنه فيما مضى ـ وبيَّنّاه لك ـ أن الروح المعبَّر عنها بالحقيقة المحمدية، وبالعقل الأول، وبالقلم الأعلى؛ هي أول مخلوق. وهي ـ أعني هذه الروح ـ كليةٌ وأرواحنا جزئياتها.

فلهذا المعنى، أشرقت تلك المعاني الكمالية الموجودة في الحقيقة المحمدية، في ذواتنا. وإلى هذا المعنى، أشار بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] وإلى هذا الإشراق في الأجسام أشار الشيخ رضي الله عنه بقوله: **محل الظهور المُشرق بالنور.** يعني: أن العالم الجسماني محل كمال الظهور الإلهي؛ لأن الجسم الإنساني، آخِرُ ظاهرٍ من مراتب الوجود. ولهذا؛ كان الإنسان البشري، نوع الأنواع على الإطلاق؛ وكان الإنسان الحقيقي، جنس الأجناس. لأنه أول كل موجودٍ، فحاز رتبة الإحاطة؛ فهو: الأول والآخِر.

وكان الإنسان مُشرقاً بأنوار الكمالات، معنىً وصورةً. فإشراقه المعنوي، هو حقائق قواه المعبَّر عنها بالعقل، والخيال، والهِمَّة، والمصوِّرة، والإرادة.. وأمثال ذلك. فهذه القوى منه، هي عين الملائكة المدبِّرة للعالم الكبير؛ فالعقل من مظاهر جبريل، والخيال من مظاهر إسرافيل، والمصوِّرة من مظاهر عزرائيل، والإرادة من مظاهر ميكائيل.. وقِسْ على ذلك، باقي قواه المعنوية.

وأما إشراقه الصوري؛ فالعينان لعالم جسمه، كالشمس والقمر للعالم الكبير. واللمس والشَّمُّ والذوق والأذنان، كالخمس الكواكب الأخرى من العالم الكبير.. فأشرق كِلا العالمين الجسمانيين بالنور.

وعلى الحقيقة؛ العالم الجسماني هو واحدٌ، لأنه عبارة عن العرش وما حواه، فهو محل الظهور الإلهي، وهو «**المشرق بالنور**» أراد بالنور، عبارة عن حقائق الكمال

الظاهرة فيه، من تجليات الحق تعالى. وعن الجسم عبَّر بقوله: **كلمة الحق**. يعني: أنه نتيجة كلمة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] لأن الأرواح متعيِّنة في العلم الإلهي، فهي هناك أعيانٌ ثابتةٌ، قديمةٌ بقدم الحقِّ.

والجسم، هذا المحسوس، إنما ظهر بواسطة الكلمة، على ما كانت الروح عليها من الصورة في العلم الإلهي. فكان الجسم أصلاً ـ من هذا الوجه ـ لظهور أعيان الممكنات، إذ هو المتعلِّق به كلمة الحَضْرة، لكونه أتمّ المجالي ظهوراً في المراتب الكونية.

ومن ثَمَّ، كان الجسم: **مقعد الصدق**. لأنه محلٌ ثابتٌ متمكِّنٌ بَيِّنٌ من كل وجهٍ، وبكل اعتبارٍ ونسبةٍ. **ومعدن الأرفاق**. وكان الجسم معدن الأرفاق، وهي المعاني الكمالية التي تحصل للأرواح بسبب الجسم.. وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم «بكشف الستور عن مُخَدَّرَاتِ النور» فمن أراد معرفة ذلك، فليطالع هنالك.

ولما كان الجسم هو المتجلِّي بجارحة السمع والبصر، قال الشيخ مشيراً إلى ذلك: **ومظهر الأوفاق**. يعني: الجسمُ مُظْهِرٌ للصفات، الموافقة لنعوت الحق تعالى، من السمع والبصر؛ إلى غير ذلك من القبضة، واليمين، والتبشْش، والتعجُّب، والنسيان في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٥١]، والنَّفَس في قوله ﷺ: «لا تسبُّوا الريح فإنها من نَفَس الرحمٰن»[١]، والصورة في قوله عليه الصلاة والسلام: «رأيتُ ربي في صورة شابٍ.. الحديث»[٢]، والذراع كما في قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «إن جلد الكافر أربعين ذراعاً بذراع الجبار»[٣].

فكُلُّ هذه الصفات، هي للجسم حقيقةٌ. وقد وافقت ما هو لله، سواءً أوَّلتها في حق الله تعالى، أمْ لم تُأوِّل. لأن الشارع ﷺ، قد نَسَبَها إليه تعالى؛ فكان الجسم محلاً لظهور الأمور الموافقة للنعوت الكمالية.

فالجسم: **محل البركات**. لتزايد الظهور في مرتبته، ولكونه يحصِّل للروح ـ بواسطة الامتزاج به ـ علوماً، لا يمكنها أن تعرفها إلا بالجسم. فهو محل البركة

(١) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم (٣٠٧٥) [ج٢ ص٢٩٨]، وابن ماجه في سننه، باب النهي عن الاضطجاع على الوجه، حديث رقم (١٠٧٦٦) [ج٦ ص٢٣٠] ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم (٨٧٦٠) [ج٤ ص٦٣٧] وابن حبان في صحيحه، حديث رقم (٧٤٨٦) [ج١٦ ص٥٣١]. ورواه غيرهما.

للروح، ومحل زيادة الظهور للحق. **ومعيِّن الحركات والسكنات.** لما فيه من قوة الكثافة، وتكاثف القوة التي بواسطتها تحصل للأرواح الحركات والسكنات الجزئية المضافة إلى الأجسام. **وبه.** أي بوجود الجسم. **عُرفت المقادير والأوزان.** لأن الجسم محل ذلك، وموضعه، ومجلاه، ومظهره. **وبه سمي الثقلان.** لثقل الجسد ورسوبه، له ـ أي للجسد ـ **من الأسماء المتين،** بالتاء المثناة من فوق، لما فيه من القوة والمتانة.

وهو الذي أبان النور المبين. أي: الجسم هو المُظهر للروح، التي هي النور المُظهر للأشياء كلها. فلولا الجسم، لما حصل للروح ما حصل من الكمال، ولا استطاعت أن تظهر بشيءٍ من ذلك في العالم. **حَكَمَ.** أي الجسم. **في النور بالقسمة.** النور هو الوجود، لأنه إنما وقع الظهور به؛ فلولا الوجود، لما ظهر الموجود، ولا عُرف العبد ولا المعبود. وما ظهرت القسمة في الوجود، إلا بسبب الأجسام، لكون الأبعاد الثلاثة لازمة لها، لكونها مركبةً كثيفةً؛ ولأجل ذلك: **ظهرت بوجوده الظلالات والظُلمة.** لأن الكثافة الجسمانية لا تخرقها الأنوار طبعاً؛ ولأجل ذلك، ظهر بوجود الجسم، الظلُّ. وكذلك الظُلمة، إنما ظهرت بواسطته، لأن الليل هو عبارة عن استتار الشمس بالأرض عن أهل الأرض؛ وكذلك الخسوف، عبارة عن حيلولة الأرض بين الشمس وبين جرم القمر. فلولا توسُّط الأرض، لما ظهرت هذه الظُلمة الموجودة.

فالظُلمة من طبع الأجسام. وكذلك، مَنْ غلب عليه العمل بمقتضى الأمور الجسمانية، يكون في ظلمةٍ من ذلك البرزخ، حتى يؤول أمره إلى النار. فالجسم أصلٌ في كمال النور، وأصلٌ في الظُلمة.

ومنه، أي من الجسم. **تتفجَّرُ ينابيعُ الحِكَم.** لوجود الحواس الخمس فيه؛ فلكل حاسةٍ من الحواس، حكمةٌ مخصوصةٌ ليست لغيرها؛ فلا تنال الروح هذه الحِكَم، إلا بواسطة الجسم. فالعين ينبوع الحِكَم التي لا تحصل إلا بالمعاينة، كالألوان، والحسن المشهود، والطراوة، والهيئات، والأوضاع. فكُلُّ مَنْ خُلِقَ أعمى، لا عين له، ليس يعرف شيئاً من هذه الحِكَم المستفادة بواسطة البصر، لا في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة. بل فاتته هذه الحِكَم على الإطلاق، فلا يشعر بها، ولا سبيل له إلى معرفتها.

والأذن ينبوع الحِكَم التي لا تحصل إلا بالاستماع، كعلوم القرون الماضية، وعلوم الأخبار، والأحاديث المروية عن الرسل، وعن الله بواسطتهم. بل ولا يعرف الرسالة ولا الرسل، كُلُّ من خُلِقَ أصَمَّ.

ولهذا، يكون كُلُّ أصَم، خُلِقَ أبْكَم. لأنه لا يسمع من أحدٍ، شيئاً من الكلام. فلا يشعر بأوضاع الكلمات، ولا يعرف لذة الأنغام، ولا يحسُّ بخشونة الأصوات الكريهة. . وقِسْ على ذلك، الشَّمّ، والذَّوْق، واللمس؛ في معرفة الروائح، والأطعمة، والنعومة والخشونة.

فكُلُّ حاسةٍ من الحواس الخمس، ينبوع حِكَم كثيرةٍ مخصوصةٍ بها، لا تصحُّ للروح معرفتها، إلا بواسطة تلك الحاسة، ولهذا، احتاجت الروح في نيل الكمالات، إلى الامتزاج بالجسم؛ فالجسم محل ظهور هذه الكمالات.

وتبرز، يعني: من الجسم. **جوامع الكلم**، بواسطة اللسان. **يحوي على رموز النصائح وكنوز المصالح.** أراد برموز النصائح: الاعتبار الحاصل للروح، بواسطة حواس الجسم. وأراد بكنوز المصالح: الأعمال الصالحة من الأفعال، والأقوال، والعلوم، والمعارف الإلهية؛ الحاصلة للروح بواسطة الجسم. لأنها تزداد شرفاً عند الله بذلك، فهي كنوز المصالح لها.

الشَّهادة سَخافته، والغَيْب كَثَافته. أراد بالشهادة هنا، عالم المُلْك؛ وبالغيب، عالم المَلَكُوت. والمراد: أن ظهور عالم الشهادة، بواسطة رقة سطح الأجسام، لأنها هي المشهودة من عالم المُلْك؛ وبطون عالم الغيب، بواسطة الكثافة الجسمانية، لأنها هي المانعة عن ذلك. ألا تراك إذا رأيتَ جسماً من الأجسام، فإن رقة مسطحة ـ وهو ظاهره الذي عبَّر عنه الشيخ بسخافته ـ مشهودٌ، ذو الغيب والشهادة.

تَسَتَّر ـ أي الجسم بالجسم. **للغَيْرةِ الإلهية على ذاته تعالى**، إذ هو عين الجسم! وسَبَبُ هذه الغيرة: **حتى لا يرى راءٍ غَيْرهُ. فلا يُبصر مُبْصِرٌ** غير ظاهر الجسم، صيانةً من الحقِّ تعالى ـ إذ هو عين الجسم ـ لباطن الجسم؛ إذ هو من أشرف مظاهر الوجود، لأنه المفصِّل لجمليات مراتب الوجود، حيث أنه: **يَتَقَلَّبُ**. أي الجسم. **في جميع الأحوال**، كاللطافة والكثافة، والصغر والكبر، والطول والعرض، والعُمْق والسُمْك، والبُعد والقرب، والتوسُّط، والحُسْن والقُبْح، والفناء والبقاء؛ إلى غير ذلك من الأحوال اللازمة للجسم، والعارضة له. فلولا شرفه، لما كانت له الأحوال كلها. فهو يدخل في كل طورٍ من أطوار النقص والكمال، **ويقبل بذاته التصرُّف في جميع الأعمال.** يعني: أن للجسم ـ من حيث هو ـ قابليةٌ لكل عملٍ من الأعمال المتنوعة؛ مما يستحيل عادةً، كقتل العصفور بازاً؛ أو يستحيل عقلاً، كحمل النملةُ جملاً. فإن في قابليتها، القبول لذلك. فلو حصل الاستعداد، ووافق القَدَر، أمكنها فعل ذلك المستحيل. . وإنما حصل هذا السرُّ ـ الذي أودعه في الجسم ـ من قدرته.

تنبيه: إعلمْ أن الإجسام على أربعة أقسام:

ـ **القسم الأول**: هو المعدن. وهو عبارة عن كل جمادٍ لا نمو له، سواء كان مائعاً أو منعقداً.

ـ **القسم الثاني**: هو النبات. وهو كل نامي من الأجسام، لا روح فيه طبعاً.

ـ **القسم الثالث**: هو الحيوان. وكل نامي ذي روحٍ من الأجسام.

ـ **القسم الرابع**: هو السموات، والأجرام النورانية، والأفلاك العلوية؛ فإن كُلاً من ذلك، أرواحٌ قائمةٌ متجسدةٌ. وإنما صَحَّ إطلاق لفظ الجسم عليها، لكونها تقبل الأبعاد الثلاثة التي هي من طبع الجسم ـ وهي الطول والعرض والعمق ـ فكانت أجساماً، لأنها من تمام عالم المُلْك. وعالم المُلْك، عبارة عن مرتبة الطور الجسماني.

وقد ذكر الشيخ ـ رضي الله عنه ـ في الباب الذي ذكره في هذه النبذة، خلاصة ما فيه. وهو الباب السابع من الفتوحات.

* * *

إن عمر الأرض، أحد وسبعون ألف سنة من سني الدنيا؛ فلا تظن أن ذلك على الإطلاق، بل عمر العالم الدنياوي من وقتٍ مخصوصٍ وإلا، فعمر هذا العالم أطول من أن يحصر، أو يحصى بآلاف الألوف من السنين. وقد ذكر الشيخ ما يدلُّ على ذلك مصرِّحاً في الفتوحات المكية، حين ذكر أن في الأهرام الموجودة بأرض مصر، كتابة بقلم غريب، يقرؤها مَنْ يعرفها. ومفهوم تلك الكتابة، أن باني تلك الأهرام، بناها والنسر الطائر في الحمل؛ وقال الشيخ رضي الله عنه: إن النسر الطائر لا ينتقل من برج إلى غيره، إلا بعد مضي ثلاثين ألف سنة، وهو اليوم في الدلو؛ فقد قطع عشرة أبراج، ولا يتأتى ذلك إلا بعد ثلثمائة ألف سنة.

وإذا كان هذا عُمر الأهرام، فأين أنت من عُمر الدنيا؟ فإذا كانت الدنيا المخلوقة للزوال بهذه المثابة من طول العُمر، فما قولك في الجنة والنار المخلوقتان للبقاء؟ فلا تحمل كلام الشيخ ـ رضي الله عنه ـ في الفتوحات، من أن عمر الجنة أو النار كذا كذا سنة، على ظاهره، بل ذلك من وقتٍ مخصوص.

لما كان الجسم الإنساني، كالعالم الدنياوي، بالوضع والتفصيل. فإن حُكْم العالم الدنياوي إلى الزوال والفناء، لأن ذلك من لازم الجسم الإنساني؛ فكُلٌ منهما نسخةٌ للآخر، وعُمر كُلٌ منهما على حسب هيكله، فكان عُمر الإنسان قصيراً، لأن

هيكله صغيرٌ؛ وكان عُمر العالم الدنياوي طويلاً، لكبر هيكله. ولا بد له من الانعدام والفناء، كما أنه لا بد للإنسان من ذلك. فافهم!

ولما كان العالم الأخراوي، نسخةً من باطن الإنسان وروحه - إذ كُلٌّ منهما نسخةٌ للآخر - فكانت الآخرة، كالروح الإنسانية؛ باقيةً بإبقاء الله تعالى. فلا يُتوهَّم أن الجنة والنار تفنيان بحال، وما ورد من أن النار تفنى، وينبت محلها شجرُ الجرجير، إنما ذلك من حيث أقواتٍ مخصوصةٍ. ففناؤها وزوالُها، فناءٌ مقيَّدٌ، لا فناء مُطلق. لأن الآخرة، محلُ مشهود الأعيان الثابتة - التي هي معلومات العلم - لأن الله تعالى يُظهرها يومئذٍ، فيُرى منها كل أحدٍ، على حسب حاله ومقامه عند الله. ولا شك أن النار معلوم العلم الإلهي، فلا سبيل إلى زوال المعلوم عن العلم.

وقد كشفتُ بذلك، عن أسرارٍ شريفةٍ، لم يسمح بها أحدٌ من المحققين؛ غَيْرَةً على تفاصيل المعرفة بالله. وفي هذه النبذة، زُبدة جميع ما أفرده الشيخ في الباب السابع من الفتوحات المكية. فافهمْ، أرشدك الله للصواب.

* * *

الباب الثامن

وَصَارَ خَرْقُ العَادَةِ، لَهُ عَادَةً

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمَّنه هذا الباب من فنون العلوم، المُشَار إليها في صدر الكتاب. **سِرُّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد**.

اعلمْ، رضي الله عنا وعنك، أن الصوفية فرَّقوا بين الجسم والجسد؛ فقالوا: إن الجسم هو كل صورةٍ مرئيةٍ قابلةٍ للأبعاد الثلاثة، حالة كونها كثيفة الأصل طبعاً. وقالوا: إن الجسد عبارة عن كل صورةٍ - يتشكَّل بها روحٌ - من الصور الجسمانية.

وإذ قد عرفت ذلك، فاعلمْ أن قول الشيخ - رضي الله عنه - «سِرُّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد» هو ليُعلم أن المراد بذلك، عبارة عن تصويرات الروح في الأشكال الحسية، المشهودة، الصورية. وإنما قال الشيخ «بالطريق المعتاد» ليُعلم أن المراد بذلك، تصورات الأرواح الجزئية؛ كما يجيء للأشخاص - في حال تفكُّرهم - من تصوُّر روحه الجزئية، بالصورة الخيالية المشهودة له عيناً؛ أو كما يجري للنائم من تصوُّر روحه، بالصورة المرئية في النوم، المشهودة له حِسًّا وشهادةً.

ولما كان عالم الخيال وعالم المثال متشابهين، كأنهما من جنسٍ واحدٍ، وكان البرزخ أيضاً شبيهاً لهما؛ قال تنبيهاً على ذلك: **البرزخ ما قابل الطرفين بذاته**. أراد الشيخ رضي الله عنه، أن يُعلمك أن عالم الخيال برزخٌ؛ لكونه قَابَلَ طرفيْ الجسم والروح الإنسانية، بذاته. وأن عالم المثال ـ أيضاً ـ برزخٌ؛ لكونه قَابَلَ طرفي المعنى والصورة، بذاته. وأن العالم الذي تصير إليه الأرواح بعد فراقها للأجسام ـ أيضاً ـ برزخٌ؛ لأنه قَابَلَ طرفيْ دار الدنيا ودار الآخرة، بذاته.

فكُلٌّ من هؤلاء البرازخ، بين أحكام طرفيه ـ لا بدَّ له من ذلك، إذ هو ناشىءٌ منهما. فالخيال، بين أحكام الجسم وبين أحكام الروح. والمثال، بين أحكام الصورة والمعنى. والمحل الذي تقيم فيه الأرواح، بين أحكام الدنيا والآخرة.

وقد ذكرنا ذلك مفصلاً ـ على ما هو عليه ـ صريحاً، في الجزء التاسع عشر من كتاب «الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قَدْر النبي ﷺ» فمن أراد تحقيق الخيال، والبرزخ، والمثال، وأرض الحقيقة ـ التي ذكرها الشيخ في الفتوحات ـ فلينظر في ذلك الجزء، فإنما وضعت تلك الرسالة لتحقيق ذلك.

فهذه العوالم الأربعة، قريبةٌ بعضها من بعضٍ؛ وكُلٌّ منها برزخٌ، لأنه قَابَلَ الطرفين بذاته. **وأبدى لذي العينين من عجائب آياته، ما يدلُّ على قوته، ويُستدلُّ به على كرمه وفُتُوَّتِهِ**.

أراد بذي العينين، كُلُّ مَنْ كان له نظرٌ في عالم الأرواح، ونظر في عالم الأجسام. احترازاً ممن هو مقصود على عالم الأجسام، فكأنه ليس له إلا عينٌ واحدةٌ. ولفظة «ما يدلُّ» موصولة، وهي مفعول «أبدى»؛ وتقديره: إن البرزخ، ما قَابَلَ الطرفين بذاته، وأبدى أموراً تدلُّ على قوته، كُلُّ مَنْ كان له عينان يبصر بهما في العالمين.

والدليل على أن هذه البرازخ المذكورة ـ من الخيال، والمثال، وأرض السِّمْسِمة، والبرزخ ـ لها قوةٌ، أنها شعبةٌ من القُدْرة، وأمورها منوطةٌ بالقدرة المحضة. وليست كأمور الدنيا، موقوفةً على الحكمة والأسباب، لأن الأشياء تتكوَّن فيها بالإرادة؛ فهي قدرةٌ محضةٌ. وإذا صَحَّ أن لها هذه القوة والقدرة، صَحَّ أن لها كَرماً وفتوة.

فهو القُلَّبُ الحُوَّلُ أي: البرزخ متقلِّبٌ في الصور، متحوِّلٌ في الهيئات؛ لِسرِّ مقتضيات طرفيه، واختلاف أمورهما. ولهذا، لا تدوم الصور المرئية فيه للناظر، بل تمرُّ عليه، وتذهب عنه، ولو كانت باقيةً، من حيث هي هي.

فلتقلُّب أحوال البرزخ على أهله؛ قال: **والذي في كُلّ صورةٍ يتحوّل**. تقديره: وهو ـ أي البرزخ ـ في كل صورةٍ من صورة طرفيه، يتحوّل. **عَوَّلَتْ عليه**. أي على البرزخ؛ **الأكابرُ**. يعني: أهل الله؛ لرجوعهم آخر الأمر إليه، فكان تعويلهم ـ لذلك ـ عليه **حين جهلته**. أي البرزخ؛ **الأصاغرُ**. وأراد بالأصاغر، المحجوبين؛ وبالأكابر، أهل الكشف. **فله**. أي للبرزخ؛ **المعنى في الحِكَم، والقَدَم الراسخة في الكَيْفِ والكَمِّ**.

إنما كان للبرزخ هذا المعنى، لتعلُّقه بطرفه الروحاني؛ والكَيْفَ والكَمّ، لتعلُّقه بطرفه الثاني، وهو الطرف الصوري الجسماني. ولهذا، كُلُّ برزخٍ: **سريع الاستحالة**؛ لكون صُوَرِه قليلةَ الدوام؛ عند الرائي، لا من حيث هي هي.

يعرفُ العارفون حاله، بيده مقاليد الأمور؛ لكونه قدرةً محضةً، تتكون الأشياءُ فيه بالإرادة. **وإليه مسانيد الغرور**؛ من أجل تحوُّل صُوَرِه، فمن ركن إلى شيءٍ منها، اغترَّ به. **له**. أي للبرزخ؛ **النَّسَبُ الإلهيُّ الشريفُ**. أراد بالنسب هنا، تكوين الأشياء بالقدرة، ألا تراك تكون ما أردته في خيالك، على حسب ما شئت؟ وإن كنتَ متمكّناً؛ كان لك ذلك في عالم المثال، وفي العالم الذي تصير الأرواحُ إليه بعد الانتقال من دار الفناء والزوال.

ولقد جرت لي واقعةٌ عجيبةٌ في هذا المعنى: رأيتُ مَرّةً في المنام، وأنا بصنعاء اليمن بتاريخ سنة خمسٍ وثمان مائةٍ، امرأةً كانت قد رَبَّتني وأحسنت إليَّ في صغري، وكانت قد ماتت؛ فرأيتها مُسْوَدَّةَ الوجه، لما تلقاه من العذاب، لنظرها إلى النار. فألبستُ النَّارَ لها، صورة الجنة. وقلتُ: انظري إلى الجنة. فنظرتْ إليها، فزال عنها السواد الذي في وجهها، وتهلَّل وجهها، حتى صارت كالقمر في الحسن والبهاء.

وكثيراً ما أرى في النوم أُموراً، أعرف فيه أن تعبيرها في اليقظة غير ملائم لطبع، فلا أقربها. وبعض الأحيان، أقلبها إلى غير تلك الصورة المخالفة للطَّبع، فأراها كما أريد! ولا يستطيع ذلك، إلا مَنْ قَدِرَ على تصريف الأمور في المعنى، وصار خرقُ العادة له عادةً في العالم الروحاني؛ لا يعرف ذلك، إلا مَنْ مارسه من العارفين.

فللبرزخ: تلك الصفة الإلهية القادرية. **والمنصب الكياني المنيف**. أي، وللبرزخ: المنصب الكياني العالي؛ وهو التعيُّن بالصورة المحسوسة، المحدودة، الخَلْقية، فهو خَلْقٌ، له وصف الحقّ.

تلطُّف في كثافته وتكثُّف في لطافته. لكونه بين عالمين؛ أحدهما كثيفٌ، والآخر لطيفٌ. فهو يظهر بحُكْم كُلٍّ من عالميْ اللطافة والكثافة، في صورةٍ واحدةٍ.

يُخرجه العقلُ ببرهانه. أي: يُخْرِجُ العقلُ بالفكرة، صورَ الأمور الخيالية ـ لأن الخيال من جملة البرازخ ـ ببرهانه. وهي الدلائل العقلية، التي تُنتِجُ في الفكر صوراً؛ على حسب مقتضاها.

ويعدُله الشَّرْعُ، بقوة سلطانه. أي: يصرفه الشرع إلى غير ما ظهر في العقل، لأن المشرع مرتبطٌ بالوحي الإلهي، فله الحُكْم على كل صورةٍ ومعنى. فلذلك؛ لم يكن للعقل، في الشرع، مجالٌ.

فالخيال: **يحكم في كل موجود**. لأنك تسري بعقلك في كل شيءٍ، ولأن الخيال يستحضر كُلَّ موجودٍ في عالمه، وإلى صحة الأمور المشهودة بحُكْم الدلائل العقلية، أشار بقوله: **ويدلُّ على صحة حُكْمه، بما يعطيه الشهود، ويعترف به**. أي: بصحة ما حَكَمَ العقلُ ـ في الخيال ـ به، فيقرُّ. **الجاهلُ بقَدْره. أي: بقَدْر عالم الخيال. والعالم**. أي بقَدْره. **ولا يقدر على رَدّ حُكْمه حاكم**. لأن العقل إذا اقتضى أمراً، لا يمكن أحد من أهل المعرفة، رَدّ ذلك الحُكْم.

وقد شرحتُ لك بهذه النبذة، جميع ما تضمَّنه الباب الثامن من الفتوحات المكية. فافهمْ، وتأمَّلْ، والله الموفق للصواب.

* * *

الباب التاسع

إبْلِيسُ أوَّلُ مَنْ خَالَفَ فِي الأَمْرِ، وَآدَمُ أوَّلُ مَنْ خَالَفَ فِي النَّهْيِ!

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي، ومن بعض ما تضمَّنه هذا الباب، من فنون العلم. **سِرُّ الوالج والمارج**. الوالج: إشارةٌ إلى الأرواح الطاهرة المُختلفة، من العُنصريين العُلْويين، وهم ملائكة الجَوّ، بين السماء والأرض. والمارج: هو الأرواح الخبيثة، وهي الجِنُّ، خلقهم الله تعالى من امتزاج النار بالهواء، كما خُلِقَ الإنسانُ من امتزاج الماء بالتراب.

ولما كان خَلْق الجان، من امتزاج النار بالهواء، كان الانقلاب طبعاً له. لأن الهواء لا ثبوت له؛ وكذلك النار، تريد العلو والارتفاع طبعاً، ألا تراك إذا أخذت

شمعةً وأقلبتها، لا تنقلب نارها معك، بل ترجع إلى فوق بالطبع؛ لأن الركن الناري يتعالى طبعاً. وبعكسه التراب، لا يطلب إلا السُفل؛ فلو أخذت كَفًا من تراب، ورميت به إلى فوق، لرجع إلى أسفل بالطبع.

ولهذا؛ كان الإنسانُ مؤتمراً طيعاً، والجان مخالفاً عاصياً. فإن عَرَضَتْ معصيةٌ من الإنسان، كانت تلك الغفلة منه عارضة، لما يقتضيه طبعه. كما أنه لو عرضت طاعةٌ من الجان، كانت تلك الطاعة عارضة، لما يقتضيه طبعه، ومن ثَمَّ، تاب الله على آدم، ولم يتب على إبليس. لأن إبليس من طبعه المعصية، ألا تراه تكبَّر وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] في حضرة الحق، ولم يصدر من الإنسان ـ الذي هو آدم ـ إلا البكاء، والندم، والخوف؛ لما يقتضيه التراب من الذِلَّة والسُّفل.

فلهذا المعنى؛ لُعن إبليس، لأنه محل المعصية والخلاف. وهو المشار إليه بقوله: **أول جَوَادٍ كَبَا، حين أُمِرَ فَأَبَى**. يعني: إبليس هو أول مَنْ خالف الله. ونعته بأنه «جَوَاد»، لأنه كان قبل ذلك من المقربين. فإبليس أول مَنْ خالف في الأمر، وآدم ـ عليه السلام ـ أول مَنْ خالف في النَّهي. لأنه قيل له لا تأكل الحبَّة، فأكل؛ وإبليس قيل له اسجدْ، فما سجد. فالخلاف واقعٌ منهما، لا من جهة واحدة، بل من جهتين.

ولذلك؛ قال الشيخ: **وأول مَنْ قَدَحَ في النُّهَى مَنْ نُهِيَ وما انتهى**. يعني: آدم عليه السلام، نُهِيَ من أكل الجنة، فما انتهى عن ذلك؛ فكان فعله قدحاً في العقل، لأن امتثال المولى، مما يحكم العقلُ بلزومه؛ فخلافه، قَدْحٌ في عقل المخالف طبعاً.

وإنما وقع الخلاف في هذين الجنسين ـ دون سائر الأجناس ـ لأن الظهور في تركيبهم لركنين. على أن بقية الأركان موجودةٌ في كل جنسٍ منهما؛ فالجنُّ من النار والهواء، والإنسان من الماء والتراب، والخلاف واقعٌ بين النار والهواء، لأن النار «يابس» والهواء «رطب»؛ وبين الماء والتراب، لأن التراب «يابس» والهواء «رطب».

فغلب حكم الخلاف في ذوات هذين الجنسين ـ دون غيرهما ـ لأن كل موجودٍ سواهما، غير مخصوص بركنين، بل يتساوى فيه الأربعة أركان، جمْعاً وفرْدى، وكُلٌّ من الجان والإنسان أيضاً، توجد فيه الأركان الأربعة؛ لكن الظهور في كُلٍّ منهما، لركنين، كما ذكرنا.

فلهذا خالفوا، لأن طبع تركيبهم يقتضي المخالفة. وإلى ذلك أشار الشيخ رضي الله عنه بقوله: سُنَّ الخلافُ في الائتلاف، فأظهر النقضَ ليُعرف الحبيبُ من البغيض. جعل الله الخلاف مسنوناً في طبع تأليف الإنسان والجان، وطلب منهما ما

يناقض طبع كُلٍّ منهما؛ فطلب من الجان، الذي أصله الكِبْر، أن يتواضع، فيسجد؛ وطلب من الإنسان، الذي أصله يقتضي التغذِّي بالحبَّة، أن يتركها. فأظهر لكُلٍّ منهما ما يناقض مقتضى طبعه، مخالفاً؛ ليُظهر بذلك شرف الحبيب ـ وهو الإنسان ـ ونقص البغيض، وهو العدو الشيطان.

إمْتَثَلَ الأمرَ فيما يُشقيه. يعني: أن إبليس خالف الحقَّ فيما يسعده ـ حيث أمره الله بالسجود ولم يسجد ـ وامتثل الأمر من الله فيما يشقيه، حيث قال الله تعالى له: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] الآية، فأطاع ذلك، ولم يعص.

وحَلَّ به. أي إبليس. **ما كان يتقيه؛** من الذِّلَّة والبُعد عن الله. لأنه ما ترك السجود لآدم، إلا بسبب أمرين: أحدهما، لئلا يسجد لغير الله، فيبعده عنه من أجل ذلك؛ والثاني، لئلا تحلَّ به المَذَلَّة، فحَلَّ به الأمران جميعاً، بالخلاف لأمر الله. فهو، والجن: **يُحالفُ الرَّدَى، ويُخالف الهُدَى، ولا يُترك سُدَى.**

يحالف ـ الأولى ـ بالحاء المهملة، من المُحالَفَةِ؛ وهي القَسَمُ بعدم الخلاف. ويخالف الثانية، بالخاء المعجمة، من الخلاف. وتقديره: أنه ملازمٌ للردى كأنه حَلَفَ ألا يفارق ما يكون سبباً للبلاء؛ وجاء بخلاف ما هو سببٌ للهُدى.

ومع اتصافه بالخوف، لا يبرح في معاملته بالحَيفِ. يعني: أن طَبْعَ الجنِّ، الميلُ والانحرافُ إلى الغيِّ؛ فلو قُدِّرَ أنه يخاف من الله، لا يبرح يحيفُ في معاملته له، ولا يقصد سواء السبيل، لأن المخالفة من طبعه الذي هو عليه.

فإذا جَنَحَ منهم مَنْ جَنَحَ إلى رَبِّه طائعاً، وكان لباب سعادته قارعاً. لم يُحسِنْ أحدٌ منا قَرْعه، وكان الحقُّ بصره وسمعه. يعني: الجنُّ، إذا اتفق أن يرغب أحدٌ منهم إلى رَبِّه، وخالف ما يقتضيه الطبع الناري من المعصية، والطبع الهوائي من عدم الثبوت على أمرٍ، فأطاع وثبت على الطاعة؛ يخرقُ في سُرادِق الحُجُبِ، لأنه روحانيٌّ لا كثافة فيه. فلأجل ذلك، لم يستطع أحدٌ من الإنس أن يبلغ بجسمه، ما يبلغه ذلك الجِنِّيُّ الكامل المطيع.

إن سَمِعَ أنْصَتَ. لأنه روحٌ، إذا توجَّه للشيء، توجَّه فيه بالكلية. ألا تراهم أنصتوا للحَقِّ، لما سمعوه؛ فقال قائلهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] ولهذا قال ﷺ: «هُمْ أسْمَعُ وأنْصَتُ منكم». ألا تراهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: ١٣]. قالوا: ولا بشيءٍ من آلاء رَبِّنا نكذِّب.

وإن أسْمَعَ أبْهَتَ؛ لِمَا يبديه من العجائب التي يصل علمه إليها، والغرائب التي يقتضيها طبعه وعالمه، وقد شرحتُ بهذه النبذة، خلاصة ما حواه الباب التاسع من الفتوحات المكية، فاعلمْ.

* * *

الباب العاشر

مَرتَبَةُ الإنْسَانِ الكَامِلِ، عِنْدِي؛ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الملائِكَةِ

قال الشيخ رضي الله عنه: **ومن ذلك**. أي: ومن بعض ما تضمَّنه هذا الباب، فنون العلوم المذكورة في الكتاب: **سِرُّ النُّور**. أي: الوجود المُطلق، الذي هو الحَقُّ **في الخفاء والظهور**. يعني: بالخفاء، تجَلِّي الحقّ تعالى لنفسه، في ذاته بذاته؛ وبالظهور، تجَلِّيه لخَلْقِهِ، في مخلوقاته.

أشرقَتْ: أي ظهرت. **الأنوارُ**: أي الأسماء والصفات الإلهية، فَشَرَقَتْ: أي تعيَّنتْ الذاتُ بتعيُّنِ الأسماء والصفات. **وتمَيَّزَتْ بها**: أي بالأسماء والصفات. **الأعْيانُ الثابتةُ**، التي هي حقائق الممكنات. **فَافْتَرَقَتْ**. يعني: تعيينُ كُلِّ موجودٍ، بسبب الأسماء والصفات؛ لأنها آثارها. . فحصلت الأعيانُ في الفَرْق، بعد الجَمْع الأول.

فَأَغْنَتْ الإشاراتُ عن العبارات. أراد بالإشارات: الموجودات، التي هي آثار الأسماء والصفات. وبالعبارات: الأسماء والصفات الحقّ أغنى الناظرين، شهودُ الأثر، عن شهود المؤثر. **فمنها**: أي من الموجودات الكونية.

مَنْ هُيِّمَ؛ كالملائكة المهيَّمة في جلال الله تعالى وجماله. **فتهيَّم**؛ كالعقل الأول، والنفس الكلية، والروح الكلية.

ومنها: أي من الموجودات الكونية. **مَنْ حُكِّمَ**؛ كالطبيعة. **فتحكَّم**؛ كالملائكة الموكَّلة بتدبير العالم، لأنهم تحكَّموا في إيجاد الموجودات: كالعقل الفَعَّال، وكالأركان الأربعة، وكالكواكب السبعة.

فلكُلِّ عينٍ؛ أي مَلَكٍ من هذه الملائكة المهيَّمة والمحكَّمة. **مقامٌ معلومٌ**؛ أي وظيفةٌ مخصوصةٌ يقوم بها، ومحلٌ مخصوصٌ من الكمال يكون عليه. **وحَدٌّ مرسومٌ**؛ لكُلٍّ من هذه الملائكة، حَدٌّ لا يتعدَّاه. وذلك الحدُّ، هو ما تقتضيه قابليته من الفاعلية، والمنفعلية، والصورية، والمعنوية، والكلية، والجزئية.

فمنه؛ أي من مقام هذه الأملاك. **مَرْمُوز**؛ لا يُدرك بالعقل، كمقام القلم الأعلى واللوح المحفوظ. **ومنه مفهوم**؛ كمقام الأركان الأربعة، لأن فعل الطبائع في الوجود، مفهومٌ عقلاً، ومُشاهَدٌ حِسًّا.

يُخلِّقُونَ نفوسهم كما يشاؤون. يعني الأرواحَ الكليةَ؛ كالهيولى، فإنها تتكوّن حسب ما تقتضيه من الصور. كالطبيعة إذا تخلَّقَتْ ناراً، أو هواءً، أو ماءً، تراباً ـ على حسب المُقْتَضَى ـ فتتخلّق بصورته؛ فهي الخالقة لنفسها، بقدرة الله تعالى.

وفي أيِّ صورةٍ شاؤوا، يتحوَّلون. يعني: أن الأرواح الكلية، تتصور بأيّ صورةٍ تقتضي قوابلها ـ من الصور الجزئية ـ فتتحوّل فيه، كما تحوّل جبريل عليه السلام، في صورة دِحية الكلبي.

هم الحدَّادون. أي: الأرواح المهيَّمة، هم الجاعلون لهم حدوداً، حسب ما تقتضيه قوابلهم، فلا يتعدَّى شيءٌ منهم حَدَّه. **والحُجَّابُ**. أي: الملائكة المحكّمة، هم حُجَّابُ الله تعالى، لأنهم الفَعَلَةُ للأمور، فلا ينظر الناظرُ، إلا إليهم. وهم حُجَّابٌ، يمنعون ـ أيضاً ـ أبصارَ الناظر، أن تقع على الحق تعالى، وبهم، حُجِبَ عن الله مَنْ حُجِبَ.

ولهم؛ أي للملائكة المهيَّمة، والمحكَّمة. **الظُّهُورُ**: تارةً حِسًّا، وتارةً عقلاً؛ صورةً، ومعنى. **والحِجَابُ**: ولهم البطون، لأن مقامهم يقتضي ذلك. ألا ترى إلى الهيولى، كيف ظهرت بظهور الصور؛ وهي ـ أعني الهيولى ـ باطنةٌ على الحقيقة، بعد هذا التعيين والظهور.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] يعني: كونهم ظاهرين في بطونهم، وباطنين في ظهورهم؛ أمرٌ يحصل منه التعجُّب، لحصول النقيضين بحالٍ واحدٍ **يُكْثِرون التكبير، ويحفُّون بالسرير**. أي بالعرش ـ والمراد به هنا: جميع المظاهر الكونية ـ فإن هذه الملائكة المهيَّمة والمحكَّمة، حافُّون به.

لهم المقامُ الأشمَخ. أي المنصبُ الأعلى؛ لأنهم مخلوقون بغير واسطة، كالعقل الأول؛ أو بواسطة قليلة، كالأرواح الكلية. أو لكونهم أسباباً كليةً، لوجود الموجودات.

ومنزلهم؛ أي منزل الملائكة المهيَّمة، والملائكة المحكَّمة: **بين الله والعَالَم، مثل البرزخ**. جعلهم الشيخ ـ رضي الله عنه ـ أفضل من البشر الكُمَّل، فقال إنهم متوسطون بين مرتبة الألوهية وبين مرتبة الإنسان الكامل. هذا مذهبه! ولا أقول بذلك؛ بل مرتبة الإنسان الكامل ـ عندي ـ فوق مرتبة الملائكة، لأنهم له، كالقوى للجسد، وكالصفة للذات، وكالعَرَض للجوهر.

فأصحاب النسب منهم الخلفاء من البشر. يعني: مَنْ كان منسوباً إلى أحدِ هذه الملائكة المهيَّمة أو المحكَّمة، بحُكم ما تحقَّق به في المراتب الكمالية الكلية، الجميلة، والجزئية التفصيلية ـ كما يُقال: فلانٌ على قلب إسرافيل، وفلانٌ على قلب ميكائيل ـ كان خليفةً للحق، يعني: نبيًا.

واعلمْ، أن الخلفاء على أقسام:

ـ خلفاءُ الله، على ما هو له؛ يقومون بصفاته عنه.

ـ وخلفاءُ الله، على ما هو منه، يقومون به في خلقه.

ـ وخلفاءٌ، لخلفاء الله في كِلا القسمين.

فالخلافة المحضة، فيما هو الله؛ لمحمدٍ ﷺ، وللأنبياء والأولياء الكُمَّل. والخلافة المحضة، فيما هو من الله؛ لمحمدٍ ﷺ وحده، والأنبياء والأولياء الكُمَّل نُوَّابه. فهم، خلفاء خلافته ﷺ.

ولمَّا كان هذا العلم، مما لا يمكن دركه لأحدٍ، إلا بالكشف والرؤية. قال: **يعلمُ ذلك، مَنْ تحقَّق بالنظر**. يعني: بالشهود والرؤية. ولهذا قال: **واعتمدَ على ما جاء به الكشف والخبر**. أراد بالخبر، قوله ﷺ: «كنتُ نبياً، وآدمُ بين الماء والطين»[(١)] وهذا الخبر، هو الذي يعطيه الكشف.

ولما كانت النُّبُوَّةُ تقتضي أن يكون محَلُّها، التوسُّط بين الله وبين الخلق؛ وكان ﷺ واسطة الجمع قبل ظهور الكُلّ. كان هذا موضع تحيُّر العقل؛ حيث وُجِدَ نبيٌّ، من غير قوم يُرسل إليهم، قال: **والعقولُ من حيث أدِلَّتِهَا، قاصرةٌ عن إدراك هذا العلم، لطموس عين الفهم**. يعني: كونه ﷺ، نبيًا قبل وجود آدم وذريته، مما لا تدركه العقول؛ لطموس طريقة الفهوم، الموقوفة على الأدلة، فافهم.

وقد شرحتُ لك، جميع ما حواه الباب العاشر من الفتوحات المكية، والله الموفق، لا رَبَّ غيره.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين...، حديث رقم (٤١٧٥) [ج٢ ص٦٥٦] ونصه: عن العرباض بن سارية السلمي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إني عند الله في أول الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر كتبة الله جلّ وعلا...، حديث رقم (٦٤٠٣) [ج١٤ ص٣١٢] ورواه غيرهما.

مقتطفات

من الباب (٥٥٩) من الفتوحات

ومن ذلك، سِرُّ الافتتاح بالنكاح؛ من الباب الأحد عشر:

أنــا فــي الــوُجــودِ بَــابٌ وَعَــلَــيْــه مــنــهُ قِــفْــلُ
فَــأَنَــا بَــعْــلٌ بِــوَجْــهٍ وَبِــوَجْــهٍ أنــا أهْــلُ[1]

القول - من القائل - في السامع، نكاحٌ. فعينُ المَقُول، عينُ ما تكوَّن من السامع، فظهر. - ظهور المصباح، لتوجه سبب القول والتكوين - على التعيين - في المحل الظاهر، لنزول الباطن إلى الظاهر. وهذا نكاحٌ بين المعنى والحِسّ، والأمر المركَّب والنَّفْس؛ ليُجمع بين الكثيف واللطيف، ويكون به التمييز والتعريف. وإن خالف تركيبُ المعاني، تركيبَ الحروف؛ فهو كخلاف المعرفة والمعروف.

ثم ينزلُ الأمرُ النكاحيُ، من مقام الافتتاح، إلى مقام الأرواح؛ ومن المنازل الرفيعة، إلى ما يظهر من نكاح الطبيعة؛ ومن بيوت الأملاك، إلى نكاح الأفلاك لوجود الأملاك؛ ومن حركات الأزمان، إلى نكاح الأركان؛ ومن حركات الأركان، إلى ظهور المولَّدات التي آخرها جسمُ الإنسان، ثم تظهرُ الأشخاصُ، بين مباض ومناص.

فالنكاحُ ثابتٌ مستقرّ، ودائمٌ مستمرّ.

* * *

ومن ذلك، سِرُّ إطفاء النبراسِ بالأنفاس، من الباب الخامس عشر:

لما كان القائلُ له مزاجُ الانفعال، كان للنَّفَسِ الإطفاءُ والإشعال. فإن أطفأ أماتَ، وإن أشعلَ أحيا، فهو الذي أضحك وأبكى.

---

(١) مجزوء الرمل وتفعيلة بحر الرمل هي:
رَمَــلُ الأبــحــر تــرويــه الــثــقــات فــاعــلاتــن فــاعــلاتــن فــاعــلاتــن

فينسبُ الفعلُ إليه، والقابلُ لا يعوَّلُ عليه. وذلك لعدم الإنصاف في تحقيق الأوصاف، مع علمنا بأن الاشتراك معقولٌ في الأصول. للقابل الإعانة، ولا يُطلب منه الاستعانة. فهو المجهول المعلوم، عليه صاحب الذوق يحوم، وحُكْمه في المحدث والقديم.

يظهر ذلك، في إجابة السائل، وهذا معنى قولنا القابل. لولا نَفَسُ الرحمٰن، ما ظهرت الأعيان. ولولا قبول الأعيان، ما اتصفت بالكيان، ولا كان ما كان. الصبحُ إذا تَنَفَّس، أذهب الليل الذي كان عَسْعَس.

* * *

فَلَوْلاَ الصَّيْدُ مَا نَفَرَ الغَزَالُ ... وَلَوْلاَ الصَّدُّ مَا عَذُبَ الوِصَالُ

وَلَوْلاَ الشَّرْعُ مَا ظَهَرَتْ قُيُودٌ ... وَلَوْلاَ الفِطْرُ مَا ارْتُقِبَ الهِلاَلُ

وَلَوْلاَ الجُوعُ مَا ذَبُلَتْ شِفَاهٌ ... وَلَوْلا الصَّوْمُ مَا كَانَ الوِصَالُ

وَلَوْلاَ الكَوْنُ مَا انْفَطَرَتْ سَمَاءٌ ... وَلَوْلا العَيْنُ مَا دُكَّتْ جِبَالُ

وَلَوْلاَ مَا أَبَانَ الرُّشْدُ غَيّاً ... لَمَا عُرِفَتْ هِدَايَةُ أَوْ ضَلاَلُ

وَلاَ كَانَ النَّعِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ... وَلاَ حَكَمَ الجَلاَلُ وَلاَ الجَمَالُ

أَرَى شَخْصاً لَهُ بَصَرٌ وَيَرْمِي ... وَلاَ قَوْسٌ لَدَيْهِ وَلاَ نِبَالُ

فَسُبْحَانَ العَلِيمُ بِكُلِّ أَمْرٍ ... لَهُ العِلْمُ المُحِيطُ لَهُ الجَلاَلُ

إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ عُيُونُ قَوْمٍ ... بِلاَ جَفْنٍ بَدَا لَهُمُ الكَمَالُ

وَوَقْتاً لاَ يَرَوْنَ سِوَى نُفُوسٍ ... مُبَعَّدَةٍ وَغَايَتُهَا اتِّصَالُ[1]

ومن ذلك: سِرُّ مَنْ مُنِحَ ليربح، فلنفسه سعى، فكان لما أُعْطِيَ وعا، من الباب السابع عشر:

إِذَا مَا كُنْتُ مَيْدَانَا ... فَجُلْ فِيهِ إِذَا كَانَا

فَإِنِّي لَسْتُ أَنْفِيهِ ... لِذَا سُمِّيتُ إِنْسَانَا[2]

* * *

(١) الأبيات من البحر الوافر وتفعيلته:

بحور الشعر وافرها جميل ... مُفاعلتن مفاعلتن فعولن

(٢) البيتان من بحر الهزج وتفعيلته: مفاعيلن مفاعيلن

ومن ذلك: سِرُّ النافلة والفَرْض، في تعلُّق العلم بالطول والعَرْض، من الباب العشرين:

مَنْ كان علته عيسى، فلا يوسي. فإنه الخالق المُحيي، والمخلوق الذي يُحيي. عَرْض العالم في طبيعته، وطوله في روحه وشريعته. وهذا النور، من «الصَّيْهُور والدَّيهُور»، المنسوب إلى الحسين بن منصور.

لم أرَ: مُتَّحِداً رَتَقَ وفَتَقْ،

وَبِرَبِّهِ نَطَقْ،

وَأَقْسَمَ بِالشَّفَقْ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقْ، وَالقَمَرَ إِذَا اتَّسَقْ

وَرَكِبَ طَبَقاً عَنْ طَبَقْ، مِثْلَهُ

.. فَإِنَّهُ نُورٌ فِي غَسَقْ.

منزلة الحق لديه، منزلة موسى من التابوت؛ ولذلك كان يقول باللاهوت والناسوت. وأين هو، ممن يقول: العين واحدة، ويحيل الصفة الزائدة؟ وأين فاران من الطور؟ وأين النار من النور؟

العرض محدودٌ، والطول ظلٌّ ممدودٌ، والفرض والنفل: شاهدٌ ومشهود.

* * *

ومن ذلك، سِرُّ الجرس، واتخاذ الحرس.. من الباب الخامس والثلاثين:

الجَرَسُ كلامٌ مُجْمَلٌ، والحرس بابٌ مُقْفَلٌ. فمن فَصَّلَ مجمله، وفَتَّحَ مقفله؛ اطَّلع على الأمر العُجاب، والتحق بذوي الألباب، وعرف ما صانه القشر من اللباب، فعظَّم الحجاب والحُجّاب.

الإجمالُ حِكْمة، وفصلُ الخطابِ قِسْمة.

لإزالة غُمَّة، في أمورٍ مُهِمَّة، محجوبةٍ بليالٍ مُدْلَهِمَّة.

والحرسُ عِصْمة، فهم أعظمُ نِعْمة، لإزالة نغمة، لإزالة نِقْمة.

صَلْصَلَةُ الجَرَسِ، عَيْنُ حَمْحَمَةِ الفَرَسِ.

* * *

ومن ذلك، سِرُّ وجود النَّفَسِ في الغَسَسِ.. من الباب التاسع والأربعين:

بالغَسَسِ يطيب المنام، وبالنَّفَسِ تزول الآلام. إن أضيف إلى غير الرحمٰن، فهو بُتان. ظهور حُكْمه، فزال عن المكروب غَمُّه. من قِبَلِ اليمن جاء، وبعد تنفيذ حكمه فاء. وإليه يرجع الأمر كله، لأنه ظِلُّه، لا يتقبض الظِّلّ، إلا إلى مَنْ صَدَرَ عنه؛ فإنه ما ظهر عينه، إلا منه. فالفرعُ لا يستبد، فإنه إلى أصله يستند. في الفروع يظهر التفصيل، وتشهد له الأصول، في قضية العقول.

* * *

ومن ذلك، سِرُّ الحيرةِ والقصور، فيما تحوي عليه الخيامُ والقصور.. من الباب الخمسين:

الخيمة والقصر، يؤذن بالقهر والقسر. لولا الحيرةُ ما وُجد العجز، ولا ظهر سلطان العِزّ، وبالقصور، عُلِمَ بحدوث الأمور. القصور يلزم الطرفين، لعدم الاستقلال بإيجاد العين. لولا القبول والاقتدار، وتكوير الليل والنهار - بالإقبال والإدبار - ما ظهرت أعيان، ولا عدمت أكوان، فسُبْحان المتفضِّل بالدهور والأمور.

ومن ذلك، سِرُّ الهرب من الحرب، من الباب الأحد والخمسين:

مَنْ مال، متحيِّزاً إلى فئةٍ أو متحرِّفاً لقتالٍ، فما مال. فالهرب من الحرب، وهو من الخداع، في الفَزَّاع، كُنْ فارًا، ولا تتَّبع فارًا. لا تضطره إلى ضيق، فيأتيك مَنْ تكرهه من فوق. كُلٌّ يجري في قربه إلى أجلٍ، فلا تُقِلَّ بِجَلٍ. إذا نزل القَدَرُ، عَمِيَ البصر. نزول الحمام، يقيِّدُ الأقدام.

لا جناح، لمن غلبه الأمرُ المتاح.

مَنْ راح، استراح، إلى مقر الأرواح.

مَنْ فُتِحَ له بابُ السماء، استظلَّ بسِدْرة الانتهاء.

الشهيد حَيٌّ، وإنجازه ليٌّ.

* * *

ومن ذلك؛ سِرُّ عبادة الهوى، لماذا تُهْوَى.. من الباب الثاني والخمسين:

لا احتجار على الهوى، ولهذا يُهوى. بالهوى يُجتنب الهوى. وحقِّ الهوى، إنَّ الهوى سببُ الهوى. ولولا الهوى في القلب ما عُبد الهوى، بالهوى يتَّبع الحق. والهوى يُقعدك مقعد الصدق.

الهوى ملاذ، وفي العبادة به التذاذ، وهو معاذ لِمَنْ به عاذ.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ [النجم: ١، ٢]. فبهوي النجم وقع القَسَم، بعدما طلع ونَجَم، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] فلولا علوّ قَدْره، ما عُظِّم من أمره.

* * *

ومن ذلك، سرُّ تعشُّق القوم بالنوم، من الباب السادس والتسعين:

الخيال عين الكمال. لولاه ما فُضِّل الإنسان على سائر الحيوان؛ به جَالَ وصَالَ وافتخر وطال، وبه قال مَنْ قال: سبحاني؛ وإنني أنا الله، وبه كان الحليم الأوّاه. فله الشتات والجمع بين أضداد الصفات حكمٌ على المحال والواجب، بما شاءه المذاهب. يخرق فيهما العادة، ويُلحقهما بعالم الشهادة، فيجسِّدها في عين الناظر، ويُلحق الأول ـ في الحُكم ـ بالآخِر.

لا يثبت على حال، وله الثبوت على تقلُّب الأحوال. فله من آي القرآن، ما جاء في سورة الرحمٰن، من أنه تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ [الرحمٰن: ٢٩، ٣٠].. ولا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فإنَّا من جملة نعمائك!

* * *

ومن ذلك، سرُّ العلم المستقر في النَّفْس بالحكم، من الباب الأحد ومائة:

العلم حاكمٌ، فإن لم يعمل العالِم بعلمه، فليس بعالِم العلم. لا يمهل ولا يهمل. العلم أوجب الحُكم، لمَّا علم الخضر حَكَم؛ ولمَّا لم يعلم ذلك صاحبه، اعترض عليه، ونسي ما كان قد ألزمه، فالتزم!

لما علم آدم الأسماء، عَلِمَ وتبرَّز في صدر الخلافة، وتقدَّم، العلم بالأسماء، لعلامة على حصول الإمامة.

الـعِـلْـمُ يَـحْـكُـمُ وَالأَقْـدَارُ جَـارِيَـةٌ ... وَكُـلُّ شَـيءٍ لَـهُ حَـدٌّ وَمِـقْـدَارُ

إِلاَّ الـعُـلُـومُ الَّتِي لاَ حَدَّ يَحْصُرُهَا ... لَـكِـنْ لَـهَـا فِـي قُـلُـوبِ الـخَـلْـقِ آثَـارُ

فَحَدُّهَا مَا لَهَا فِي القَلْبِ مِنْ أَثَرٍ ... وَعَـيْـنُـهَـا فِـيـهِ أَنْـجَـادٌ وَأَغْـوَارُ

فَـلَـوْ تُـحِـدُّ بِـحَـدِّ الـفَـوْزِ نَـاقِـصَـةً ... حَدٌّ لِتَجِدَ، فَفِي التَّحْدِيدِ إِضْرَارُ[1]

---

(١) الأبيات من البحر البسيط وتفعيله:

إنَّ البسيط لديه يبسط الأمل ... مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

إفهم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فتعلم، إنْ كنت ذا فهم، مَنْ أعطاه العلم؟ مَنْ عَلِمَ الشيء قبل كونه، فما علمه من حيث كونه، وإنما علمه من حيث عينه، من أين علم أنَّ العين يكون، وليس في العدم مُكون؟

هذا القدر من العلم، أعطاه جُوده، وحَكَمَ به وجوده.

* * *

ومن ذلك، ولايةُ البشر عينُ الضرر، من الباب الخمسين ومائة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يُؤمَنُ به من كل خِيفة، أعطاه التقليد، ومكَّنه من الإقليد؛ فتحكَّم به في القريب والبعيد. وجعله عين الوجود، وأكرمه بالسجود؛ فهو الروح المطهَّر، والإمام المدبِّر.

شَفَّعَ الواحد عَيْنَهُ، وحَكَمَ بالكثرة كَوْنَهُ. وإنْ كان كل جزءٍ من العالم مثله في الدلالة، ولكنه ليس بظلٍّ . فلهذا انفرد بالخلافة، وتميَّز بالرسالة؛ فشرَّع ما شرع، واتَّبَعَ ـ فهو واسطة العقد، وحامل الأمانة والعهد.

حَكَم فقهر، حين تحكَّم في البشر؛ فظهر النفعُ والضرر. فأول مَنْ تضرَّر هو ـ كما ذكر ـ ثم إنه لم يقتصر، حتى آذى الحق وسبَّه؛ وأعطاه قلبه، وعلم أنه ربُّه، فأحبَّه، ولمَّا حسده وغبطه، أغضبه وأسخطه.

ثم بعد ذلك هداه، وأرضاه، واجتباه.

فلولا قوة الصورة ما عتى، ولرجوعه إلى الحق سُمي فتى. بالجود في إزالة الغرض، وأزال بزواله المرض. وقام الأمرُ على ساق، وحصل القمر في اتساق، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠].

إن الله يَزَعُ بالسلطان، ما لا يَزَعُ بالقرآن. فإن السلطان ناطقٌ خالق، والقرآن ناطق صامت! فحكمه حكم المائت، لا يُخَاف ولا يُرْجى، ولا يُطْرد ولا يُزْجى. وما استند الصِّدِّيقون إليه، ولا عوَّل المؤمنون عليه؛ إلا لصدق ما لديه.

فالقرآن أحقُّ بالتعظيم من السلطان، لأنه الكلام المجيد الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢] لا رادَّ لأمره، ولا معقِّب لحُكْمه. يصدُق في نطقه، ويعطي الشيء واجبَ حقِّه. فهو النور، والسلطان قد يجور.

* * *

ومن ذلك، مراتب الأحبة في منزل المحبة، من الباب (١٨٥):

الأحباب أرباب، والمحبوب خلف الباب، المحبُّ رَبُّ دعوى، فهو صاحبُ بلوى. لولا دعوى المحبة، ما طلبنا الجزاء من اللطيف.

المحبوب إن شاء وصل، وإن شاء هجر؛ فإذا ادّعى محبّه محبّةً اخْتُبر. المحبُّ في الاختبار، والحبيب مصانٌ من الأغيار، ولهذا ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

للأحبة منزلٌ في المحبة؛ فحبيبٌ جنيب، وحبيبٌ قريب. فالمحبُّ إذا كان ذا جَنابة، فما هو من القَرَابة، وإذا لم يكن جنيباً، كان قريباً! قُرْب الحبيب بالاشتراك في الصفة، وجنابته في عدم الاشتراك فيها، كما أعطت المعرفة: «تقرَّب إليَّ بما ليس لي» لما طلب القرب الولي، والذي ليس له: الذِّلة والافتقار؛ فهو الغنيُّ العزيزُ الجبارُ، والمتكبرُ خلف باب الدار.

أُنظر إلى ما أعطاه الاشتراك والدعوى، من البلوى! هو في النزوح بالجسم الصوري والعقل والروح، ولهذا لا يتجلى ـ لمن هذه صفته ـ إلا القُدُّوس السُّبوح. فالنزيه للعين، لا يقول بالاشتراك في الكون.

* * *

ومن ذلك، الشوق والاشتياق للعشاق، من الباب (١٨٧):

الشَّوْقُ يَسْكُنُ بِاللِّقَاءِ، والاشْتِيَاقُ يَهِيجُ بِالالْتِقَاءِ

لاَ يَعْرِفُ الاشْتِيَاقَ إلاَّ العُشَّاقُ.

مَنْ سَكَنَ بِاللِّقَاءِ، فَمَا هُوَ عَاشِقٌ، عِنْدَ أَرْبَابِ الحَقَائِقِ.

مَنْ قَامَ بِثِيَابِهِ الحَرِيقُ؛ كَيْفَ يَسْكُنُ؟

وَهَلْ مِثْلُ هَذَا يَتَمَكَّنُ!

لِلنَّارِ الْتِهَابٌ وَمَلَكَةٌ، فَلاَ بُدَّ مِنَ الحَرَكَةِ.

وَالحَرَكَةُ قَلَقٌ. فَمَنْ سَكَنَ، مَا عَشِقَ

كَيْفَ يَصِحُّ السُّكُونُ؟ وَهَلْ فِي العِشْقِ كُمونٌ، هُوَ كُلُّهُ ظُهُورٌ. وَمَقَامُهُ نُشُوزُ العَاشِقِ مَا هُوَ بِحُكْمِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَحْتَ حُكْمِ سُلْطَانِ عِشْقِهِ.

وَلاَ بِحُكْمِ مَنْ أَحَبَّهُ.

هَكَذَا تَقْتَضِي المَحَبَّةُ.

فَمَا حَبَّ مُحِبٌّ إلاَّ نَفْسَهُ؛ أوْ، مَا عَشِقَ عَاشِقٌ إلاَّ مَعْنَاهُ وَجِسْمُهُ! لِذَلِك،
العُشَّاقُ يَتَأَلَّمونَ بِالْفِرَاقِ، وَيَطْلُبُونَ لَذَّةَ التَّلاَقِ.
فَهُمْ فِي حُظُوظِ نُفُوسِهِمْ يَسْعَوْن
وَهُمْ فِي العُشَّاقِ الأَعْلَوْنَ.
فَإنَّهُمْ العُلَمَاءُ بِالأُمُورِ، وَبِالَّذِي خَبَّاهُ الحَقُّ خَلْفَ السُّتُورِ.
فَلاَ مِنَّةَ لِمُحِبٍّ عَلَى مَحْبُوبِهِ، فَإنَّهُ مَعَ مَطْلُوبِهِ؛
وَلاَ عِنْدَهُ مَحْبُوب وَمَرْغُوبٌ.
سِوَى مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ، وَيَبْتَهِجُ بِهِ كَوْنُهُ.
وَلَوْ أَرَادَ المُحِبُّ، مَا يُرِيدُهُ المَحْبُوبُ مِنَ الهَجْرِ
هَلَكَ.. بَيْنَ الإرَادَةِ، وَالأَمْرِ! وَمَا صَحَّ دَعْوَاهُ فِي المَحَبَّةِ
وَلاَ كَانَ مِنَ الأَحِبَّةِ..
فَفَكِّرْ، تَعْثُرْ!

* * *

ومن ذلك، الشَّطْحُ من الفَتْحِ، من الباب (٢٠٢):

مَنْ شَطَحَ عن فناءٍ شطح! وهذا من أعظم المنح؛ إلا أنه يُلْتبسُ على السامع، فلا يعرف الجامع من غير الجامع، ولهذا الالتباس، جعله نقصاً بعضُ الناس، من باب سَدِّ الذريعة، لما فيها ـ بالنظر إلى المخلوق ـ من الألفاظ الشنيعة التي لا تجيزها لهم الشريعة.

فمَنْ تقوّى في هذا الفتح، وعلم من نفسه أنه ليس بشاطح، لم يظهر عليه شيءٌ من الشطح. فلا يظهر الشطح، من صاحب هذا الصف، إلا إذا كان في حاله ضعف..

ألا إن تبيّن ذلكَ، عند الواصل والسالك.. ألا ترى إلى ما قال صاحب القوة، والتمكين في إنفاذ الأمر: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَم وَلاَ فَخْرَ» فانظرْ إلى أدبه في تحلّيه، كيف تأدّب مع أبيه، وما ذكر غير إخوته. فالأديب من أخذ بأُسْوته، فإن رَبَّه أدّبه. ومَنْ أدّبه الحقُّ؛ أنزل الناس منازلهم، لمّا تحقَّق.

* * *

ومن ذلك، الجامعُ واسعٌ، من الباب (٢٢٩):

لو لم يكن في الجامع اتساع، ما كان جامعاً بالإجماع. قلب المؤمن جامعٌ للوسع؛ فغاية اتّساعه على مقداره، واتّساعه على قدر أنواره، فتجوُّل الإبصار، على قَدْر ما تُكْشف له الأنوار؛ ويكون السرور على قَدْر ما يحصل لك من الكشف بذلك النور.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النّور: ٣٥] فقد عَمَّ الرفعُ والخفض. فصاحب البصر الحديد، يدرك به ما يريد؛ ولهذا، إرادة المُحْدَث قاصرة، ودائرته ضيقة متقاصرة! ألا تراه أَلْبسه على ما قلناه في الخبر: فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وهي جنّةٌ محصورة، والأمور فيها مقصورة؛ فكيف بمَنْ لا يأخذه حصرٌ، ولا يسعه قُصرٌ؟ كيف ينضبط شأنه، أو يحُدُّ مكانه من مكانه، عينه جَهل، ولو عرف كونه!

* * *

ومن ذلك، المريدُ مَنْ يجد في القرآن ما يريد، من الباب (٢٣٥):

كان شيخنا أبو مَدْيَن يقول: المريدُ، مَنْ يجدُ في القرآن كُلَّ ما يريد! ولقد صدق ـ في قوله ـ الشيخُ العارف؛ لأن الله يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعَام: ٣٨] فقد حوى بجميع المعارف، وأحاط بما في العلم الإلهي من المواقف.. وإن لم تتناهى، فقد أحاط علماً بها، وبأنها لا تتناهى. فاسترسل عليها علمه، وأظهرها عن التتالي حُكْمه إلى غير أَمَدٍ، بل لأبَدِ الأبَدِ.

فالمريد المكين، مَنْ يقول ـ لما يريد ـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعَام: ٧٣].. فمن لم يكن له هذا المقام، فما هو مريد، والسلام!

من كانت إرادته قاصرة، وهِمَّته متقاصرة، لا يتميَّز عن سائر العبيد؛ فهذا معنى المريد.. فإن احتججت بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القَصَص: ٥٦] فما أصبت. العلاَّمُ، مَنْ ينتقل من مقام إلى مقام؛ ذلك حكم الدار، وأين دار البوار من دار القرار؟

* * *

ومن ذلك، الاغترابُ تَبَابٌ. . من الباب (٢٣٧):

الغربة مفتاح الكُرَبِ، ولولاها ما كانت القُرَب. القريب هو الغريب، وهو الحبيب، ولا يقال في الحبيب أنه غريب، هو لمدمحب عينُه، وذاته، وأسماؤه، وصفاته. لا نظر له إليه، فإنه ليس شيئاً زائداً عليه.

ما هو عنه بمعزل، وما هو له بمنزل.

قيل لقيس ليلى: مَنْ أنت؟

قال. ليلى!

قيل له: مَنْ ليلى؟

قال: ليلى!

فما ظهر له عينٌ في هذا البين، فما بقي اغتراب، فإنه في تباب؛ فَقَد عينه، وزال كونه.

العُشَّاق، لا يتصفون بالشوق والاشتياق، الشوقُ إلى غائبٍ، وما ثَمّ غائب. مَنْ كان الحقُّ سمعه، كيف يطلبه؟ ومن كان لسانه، كيف يعتبه؟

فَأَيْنَ تَذْهَبُون، وما ثَمَّ أَيْنٌ عند من تحقَّق بالعين.

* * *

ومن ذلك، مَنْ شرب طرب. . من الباب ([illegible]):

لا يطربُ الشارب، إلا إذا شرب خمراً، وإذا شرب خمراً فقد جاء شيئاً إمراً؛ لأنه يخامر العقول، فيحول بينها وبين الأفكار، فيجعل العواقب في الأخبار، فيبدي الأسرار برفع الأستار. فحرِّمت في الدنيا لعظم شأنها، وقوة سلطانها. . وهي ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمَّد: ١٥] حيث كانت، ولهذا، عزَّت وما هانت. في الدنيا محرَّمة، وفي الآخرة مكرَّمة. هي ألذُّ أنهار الجنان، ولها مقام الإحسان. عطاؤها أجزل العطاء، ولهذا يقول مَنْ أصابه حكمها، وما أخطأ:

فَإِذَا سَكِرْتُ فَإِنَّنِي رَبُّ الخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ(١)

وهو صادقٌ. . وإذا فارقه حكمها، وعفا عنه رسمها، يقول ـ أيضاً ـ ويصدق، وقال الحق:

وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِنَّنِي رَبُّ الشُّوَيْهَةِ والبَعِيرِ(٢)

---

(١)، (٢) البيتان من مجزوء الرجز وتفعيلته: مفتعلن مُفَاعِلُن

وهما للشاعر الجاهلي المُنَخَّل بن مسعود اليشكري من بني يشكر (؟ ـ ٢٦ق.هـ).

وهذا المقام أعلى، لأنه ربُّ الحيوان، فتفطَّن لهذا الميزان.

* * *

ومن ذلك، التنزيه تمويه.. من الباب (٢٨٠):

إنَّ الوُجُودَ لأكْوَانٌ وَأشْبَاهُ ... فَلاَ إلَهَ لَنَا فِي الكَوْنِ إلاَّ هُو

جَلَّ الإلَهُ فَمَا يَحْظَى بِهِ أحَدٌ ... فَلَمْ يَقُلْ عَارِفٌ بِرَبِّهِ مَا هُو

لِلَّهِ قَوْمٌ إذَا حَفُّوا بِحَضْرتِهِ ... يَنْفُونَ وَصْلَتَهُمْ بِذَاتِهِ تَاهُو

قَدْ مَوَّهَ القَوْمُ بِالتَّنْزِيهِ وَهُوَ هُمُ ... فِي كُلِّ حَالٍ، فَعَيْنُ القَوْمِ عَيْنَاهُ

وَاللَّهِ مَا وَلَدَ الرَّحْمَنُ مِنْ وَلَدٍ ... وَمَا لَهُ وَالِدٌ، مَا ثَمَّ إلاَّ هُو

وَكُلُّ مَا فِي الوُجُودِ الكَوْنِ مِنْ وَلَدٍ ... وَوَالِدٍ هُوَ فِي تَحْقِيقِنَا مَا هُو

دَلِيلُنَا: مَا رَمَى بِالرَّمْلِ حِينَ رَمَى ... مُحَمَّدٌ، وَهُوَ قَوْلِي: مَا هُوَ إلاَّ هُو

فَالحَمْدُ لِلَّهِ لاَ أبْغِي بِهِ بَدَلاً ... لأنَّهُ لَيْسَ فِي الأكْوَانِ إلاَّ هُو[1]

* * *

ومن ذلك، الدليلُ في حركة الثقيل؛ من الباب (٢٩٣):

الأمرُ جليل، من أجل حركة الثقيل؛ لا يتحرَّك إلا عن أمرٍ مُهِم، وخطبٍ مُلِم..

كزلزلة الساعة المذهلة عن الرضاعة، مع الحبِّ المفرط في الولد، ولا يلوي على أحد.

وقد ذهب بعض الأوائل، أن العالم أبداً نازل، يطلب بنزوله مَنْ أوجده، حين وحَّده.. والحقُّ لا ينتهي، فمن أول حركةٍ، كان ينبغي أن يعتكف عليه، لأنه جَلَّ أن تُقطع إليه المسافات المحقَّقة، فكيف المتوهَّمة؟

رسومٌ معلَّمةٌ، وأسرارٌ مكتَّمةٌ

بيوتٌ مُظْلمة، وألْسِنَةٌ غير مُفْهمة

لأن الخيالَ، يخيِّل العلمَ به والمقالَ!

فَأيْنَ تَذْهَبُونَ، أو ماذا تطلبون؟

---

(١) الأبيات من البحر البسيط وتفعيلته:

إن البسيط لديه يبسط الأمل ... مُستفعلُن فاعِلُن مُستفعِلُن فعِلُن

يقول العارف لأبي يزيد: «الذي تطلبه تركته ببسطام» فَدَلَّه على المقام. فإن العبد يُسار به في حال إقامته، إما إلى دار إهانته، وإما إلى دار كرامته.

* * *

ومن ذلك، الإيثار ليس من صفات علماء الأسرار؛ من الباب (٣٣٣):

ما هُوَ لك، فما تقدر على دفعه. وما ليس لك، فما لك استطاعةٌ على منعه، فأين الإيثار؟ والأمر أمانة، فأدِّها إلى أهلها قبل أن تسلبها وتوصف بالخيانة. فاعْطها عن رضى قلبك، تَفُزْ برضى ربِّك، فهؤلاء هم الأحياءُ وإن ماتوا:

لِلَّهِ قَوْمٌ وُجودُ الحَقِّ عَيْشُهُمُ ... هُمُ الأحْيَاءُ إنْ عَاشُوا وَإنْ مَاتُوا

هُمُ الأعَزُّ ألاَ يَدْرُونَ أنَّهُمُ ... هُمُ وَلاَ مَا هُمُ إلاَّ إذَا مَاتُوا

لِلَّهِ دَرُّهُمُ مِنْ سَادَةٍ سَلَفُوا ... وَخَلَّفُونَا عَلَى الآثَارِ إذْ مَاتُوا

لاَ يَأْخُذُ القَوْمَ نَوْمٌ لاَ وَلاَ سِنَةٌ ... وَلاَ يَؤُدُهُمُ حِفْظٌ وَلَوْ مَاتُوا

فَكَيفَ بِالشَّمْسِ لَوْ أبْدَتْ محَاسِنَهُمْ ... أقْسَمْتَ بِاللهِ إنَّ القَوْمَ مَا مَاتُوا

وَكُنْتَ تَصْدُقُ، إنَّ اللهَ أخْبَرَنَا ... عَنْ مِثْلِهِمْ، أنَّهُمْ وَاللهِ مَا مَاتُوا

أحْيَاءُ لَمْ يَعْرِفُوا مَوْتاً وَمَا قُتِلُوا ... فِي مَعْرَكٍ وَذُوُوا رِزْقٍ وَقَدْ مَاتُوا

فَلَوْ تَرَاهُمْ سُكَارَى فِي محَارِبِهِمْ ... لَقُلْتَ إنَّهُمُ الأحْيَا وَإنْ مَاتُوا

اللهُ كَرَّمَهُمْ، اللهُ شَرَّفَهُمْ ... اللهُ يُحْيِيهِمْ بِهِ إذَا مَاتُوا

لَقَدْ رَأيْتُهُمْ كَشْفاً وَقَدْ بُعِثُوا ... مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا، مِنْ بَعْدِ مَا مَاتُوا[1]

* * *

ومن ذلك، مَنْ وعظه النومُ من القوم؛ من الباب (٣٧٤):

قال: مَنْ أراد أن يعرف حاله بعد الموت، فلينظر في حاله إذا نام هو، وبَعدَ النوم. فالحضرةُ واحدةٌ، وإنما ضرب اللّهُ لنا ذلك مثلاً؛ وكذلك ضرب اليقظة من النوم، كالبعث من الموت، لقومٍ يعقلون.

وقال: الدنيا والآخرة أُختان، وقد نهى اللّهُ عن الجمع بين الأُختين، والجمع يجوز بين الضَّرَّتين، فما هما ضَرَّتان! لكن لما كان في الإحسان إلى إحدى الأختين بالنكاح، إضرارٌ بالأخرى؛ لذلك قيل فيهما ضَرَّتان، فتنبَّه.

(١) الأبيات من البحر البسيط.

وقال: سفينتك مركبك، فاخرقه بالمجاهدة. وغلامك هواك، فاقتله بسيف المخالفة. وجدارك عقلك ـ لا، بل الأمر المعتاد في العموم ـ فأقمه تستر به كنز المعارف الإلهية عقلاً وشرعاً، حتى يبلغ الكتاب أجله، إذا بلغ عقلك وشرعك فيك أشُدَّهما، وتَوَخَّيا ما يكون من المنفعة في حَقِّهما، وما أريد بالشرع إلا الإيمان، فإن العقل والإيمان: نورٌ على نور.

* * *

ومن ذلك، ما يحصِّل: صاحبُ الرِّحلة عن كل نِحْلة؛ من الباب (٣٧٥):

قال: الرحلة من الأكوان إلى الله تعالى، جهلٌ به تعالى. فلو رأى وجه الحق في كل شيء، لعرف قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] على الاعتبارين في قوله: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال: الظلمة دليلٌ على علم الغيب، والنور دليلٌ على عالم الشهادة. فالليل لباسٌ؛ فأنت الليل، والنهار للحركة، فهو للحق. شؤونهُ الحركة حياةٌ، وهي حَقِّيةٌ؛ والسكون موت، فهو خَلْقيٌّ، ومع هذا، فله ما سَكَنَ بالوجهين ـ من السكون والثبات ـ ولك ما تحرَّك بالوجهين: من، وإلى، ولا اعتبار لليل ولا لنهارٍ، فله ما فيها من حُكم الإيجاد؛ ولك ما فيها من الانتفاع. والنومُ راحةٌ بدنيةٌ، ومكاشفاتٌ عينيةٌ غيبيةٌ.

وقال: إرداف النعم وتواليها، إرفادُ الحق ومِنَحُهُ لعباده، فمَنْ اتقى الله فيها سعد، ومَنْ لم يَتَّقِ الله فيها شقي.

وقال: مواهب الحقّ لا تحجير عليها، فلا تَقُلْ: لم نُعطَ، فإن الحقَّ يقول: لم تأخُذ. الدليلُ ما ورد من التكليف.. قيل لك «لا تفعل» فعلتَ، قيل لك «افعل» لم تفعلْ، هكذا الأمر!

* * *

ومن ذلك؛ الفرقُ في الوحي، بين التَّحْتِ والفَوْقِ.. من الباب (٣٧٦):

قال: إذا قام المُكَلَّفُ بما خاطبه به رسوله، من حيث ما بَلَّغَهُ عن رَبِّهِ ـ لا من حيث ما سُنَّ له ـ فما دَخَلَ له، مما أتحفَهُ الحقُّ به في ميزان قيامه، فذلك: العلم المكتسب، وما خَرَجَ عن ميزانه، ولا يقبله ميزان عمله، فذلك: علم الوَهْب الإلهي. فالعلمُ الكَسْبيُّ نصرُ اللهِ، والوَهْبيُّ فَتْحُهُ.. فـ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، عُلِمَ أنه قد قام بحَقِّ ما كُلِّفَ؛ وإذا انقادت إليه قواه ـ الحِسِّيَّة والعقلية ـ

فمشت معه على طريقه، الذي هو صراط الله، لا صراط الرَّبِّ؛ فَلْيَشْكُر الله على ما خَوَّلَهُ به وحَبَاه.

وقال: خَفِيَ عن الناس طاعة إبليس، بلعنة الله إياه، كما خَفِيَ عنهم موافقة المَلَكِ رَبَّه ـ في خلافة آدم ـ بثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

* * *

ومن ذلك؛ الاستقصاء، هل يمكن فيه الإحصاء.. من الباب (٣٨٣):

قال: إذا رأيت مَنْ يتبرأ من نفسه، فلا تطمح فيه، فإنه منك أشد تبرؤاً. فافهمْ!

وقال: ما ثَمَّ ثقةٌ بشيء، لجهلنا بما في علم الله.. فيا لها من مصيبة!

وقال: ما ثَمَّ إلاَّ الإيمان، فلا تعدل عنه. وإيَّاك والتأويل فيما أنت به مؤمنٌ، فإنك ما تظفر منه بطائلٍ، ما لم يُكْشف لك عيناً.

وقال: اجعلْ أساس أمرك كله على الإيمان والتقوى، حتى تبين لك الأمور، فاعملْ بحسب ما بان لك، وسِرْ معها إلى ما يدعوك إليه.

وقال: اجعلْ زمامك يد الهادي، ولا تتلكأ، فيسَلَّط عليك الحادي، فتشقى شقاء الأبد.

وقال: من كانت داره في الدنيا الجنان، خِيفَ عليه، وبالعكس!.

* * *

ومن ذلك؛ مَنْ خَيَّرك، فقد حَيَّرك، من الباب (٤٠٠):

قال: ما دعا الملأ الأعلى إلى الخصام، إلا التخييرُ في الكَفَّارات. التخييرُ حيرةٌ، فإنه يطلب الأرجح أو الأيسر، ولا يُعرف ذلك إلا بالدليل، ففديةٌ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نُسُك، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أواسط ما تطعمون أهليكم، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

وقال: إذا خيَّرك الحقُّ في أمور، فانظرْ إلى ما قدَّم منها بالذكر، فاعملْ به، فإنه ما قدَّمه حتى تَهْمُمَ به وبك، فكأنه نَبَّهك على الأخذ به. ما تزول الحيرة عن التخيير، إلا بالأخذ بالمتقدِّم. تلا رسول الله ﷺ حين أراد السعي في حجَّة الوداع: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: «نبدأُ بما بَدَأ اللَّهُ به» فبدأ بالصفا.. وهذا عين ما أَمَرْتُكَ به لإزالة حيرة التخيير؛ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *

ومن ذلك؛ مَزَلَّةُ الأقدام، في بعض أحكام العقول والأحلام.. من الباب (٤٠٧):

قال: العارفُ مَنْ عبد الله من حيث ما شرَعَ، لا من حيث ما عَقَل من طريق النظر.

وقال: العقلُ قَيْدَ مُوجده، والشرع والكشف أرسله، وهو لله الحق!.

وقال: للهوى في العقل حُكْمٌ خفيٌّ، لا يشعر به إلا أهل الكشف والوجود.

وقال: أثر الأوهام في النفوس البشرية، أظهرُ وأقوى من أثر العقول، إلا مَنْ شاء اللّهُ.

وقال: من رحمة الله بنا، أنه رفع عنا المؤاخذة بالنسيان، والخطأ، وما نحدث به أنفسنا، فلو أخذنا بما ذكرنا لهلك الناس.

وقال: ما سُمِّيت العقولُ عقولاً، إلا لقصورها على مَنْ عقلته ـ من العِقَال ـ فالسعيد مَنْ عَقَلَه الشرع، لا من عَقَلَه غير الشرع.

* * *

ومن ذلك، تنبيهٌ: لا تُضاهي النور الإلهي.. من الباب (٤٢٠):

قال: الحقُّ لا يُضاهى، لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إنما اللّهُ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] فأين المُضاهى؟.

وقال: صفاتُ التشبيه مُضاهاةٌ مشروعةٌ، فما أنتَ ضاهيت!.

وقال: العقلُ ينافي المضاهاة، والشرع يثبت وينفي، والإيمان بما جاء به الشرع هو السعادة، فلا يتعدى العاقل ما شَرَّع اللّهُ له!.

وقال: العاقل مَنْ هَجَرَ عقله، واتَّبع شَرْعه بعقله من كونه مؤمناً.

وقال: أكملُ العقول، عقلٌ ساوى إيمانه، وهو عزيز.

وقال: لو تصرَّف العقلُ ما كان عقلاً، فالتصريف للعلم لا للعقل. وقال:

لِلْعَقْلِ لُبٌّ وَلِلأَلْبَابِ أحْلامُ	وَلِلنُّهَى فِي وُجودِ الكَوْنِ أحْكَامُ
تَمْضِي اللَّيَالِي مَعَ الأنْفَاسِ فِي عَمَهٍ	لِلْخَوْضِ فِيهِ، وَأيَّامٌ وَأعْوَامُ
وَمَا لَنَا مِنْهُ مِنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ	إلاَّ القُصُورُ وَأقْدَامٌ وَإيهَامُ
العِلْمُ بِاللّهِ نَفْيُ العِلْمِ عَنْكَ بِهِ	فَكُلُّ مَا نَحْنُ فِيهِ فَهْوَ أوْهَامُ[1]

---

(١) هذه الأبيات من البحر البسيط.

وقال: العاقلُ، مَنْ لعقله أعْقَلَ أنه لا يَعْقِلُ، فمتى عَقِلْتَ جهلت.

* * *

ومن ذلك، مَنْ أبى أن يكون من النقباء.. من الباب (٤٥٦):

قال: النقيبُ، مَنْ استخرج كنز المعرفة باللّهِ من نفسه، لما سمع قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فُصلَت: ٥٣] وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] وقول رسول الله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»(١).

وقال: مَنْ أبَى أن تكون له مثل هذه المعرفة.. لم يكن من النقباء.

وقال: لما علم أن بين الدليل والمدلول وجهاً رابطاً، زهد في العلم بالله من حيث نظره في الدليل ـ وليس سوى نفسه ـ وكان مِمَّنْ عرف نَفْسَهُ بالله.. وقد ذهب إلى ذلك جماعة من أصحاب النظر، مثل أبي حامد، ولكن لنا في ذلك طريقةٌ غير طريقتهم. فإن الذي ذهبوا إليه في ذلك لا يصحُّ، والذي ذهبنا إليه يصحُّ؛ وهو أن نأخذ العلم به إيماناً، ثم نعمل عليه، حتى يكون الحقُّ جميع قوانا فنعلمه به، فنعلم عند ذلك نفوسنا به، بعد علمنا به.. وهذه طريقة أهل الله في تقدُّم العلم بالله.

* * *

ومن ذلك: دين الأنبياء واحدٌ، ما ثَمَّ أمرٌ زائدٌ؛ وإن اختلفت الشرائعُ، فثَمَّ أمرٌ جامعٌ:

الدِّينُ عِنْدَ الأَنْبِيَاءِ وَحِيدُ	وَمَقَامُهُ بَيْنَ الأَنَامِ شَدِيدُ
فَإِذَا الرِّجَالُ تَفَطَّنُوا لِرَحِيلِهِ	عَنْهُمْ وَقَامَ لَهُمْ بِذَاكَ شَهِيدُ
جَاؤُوا إِلَيْهِ مُهَطِّعِينَ لَعَلَّهُ	يَوْماً بِقَصْدِهِمُ إِلَيْهِ يَعُودُ(٢)

قال: هو إقامة الدين، وأن لا يُتَفرَّق فيه. ما خلق الله أبغضَ إليه من الطلاق، وهو بيد مَنْ أخذ بالساق، فلماذا يُقصد إلى البغيض مع هذا التعريض؟.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٥٣٢) [ج٢ ص٣٤٣] طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) الأبيات من البحر الكامل وتفعيلته:

كل الجمال من البحور الكامل ... متفاعلن متفاعلن متفاعلن

نكاحَ عَقْدٍ وعرسٍ شهدوا، بتنا ببكرٍ صُهْباً؛ في لجّةٍ عمياء. نفوسٌ زُوّجت بأبدانها، ولم يكن ناكحُها غير أعيانها. ثم أنه مع التكدُّر والانتقاص، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]. ثم مع هذا يدعو ويجاب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وأعجب من ذلك؛ ﴿جبالٌ سُيِّرت﴾ فكانت سراباًو و﴿سماءٌ فُتحتْ فكانت أبواباً﴾ ذات حُبُكٍ وبروجٍ، وأرواحٌ لها فيها نزولٌ وعروجٌ، و﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] فأين الولوج وأين الخروج، وأين النزول، وأين العروج. هذا موضع الاعتبار، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

واللّهِ، إن أمراً نحنُ فيه لمريج، وإن زوجاً زُوِّجنا به لبهيجٌ.

سقفٌ مَرْفوع، ومهادٌ مَوْضوع.

ووتدٌ مَفْروق، ووتدٌ مجْموع.

ظُلْمةٌ ونور،

وبَيْتٌ مَعْمور،

وبَحْرٌ مَسْجور،

ومياهٌ تغور، ومراجل تفور

فَارَ التَّنُّور، واتَّضحتْ الأمور

نُجومٌ مُشْرقةٌ، ورُجومٌ محْرقةٌ.

شُهُبٌ ثواقب، وشُهُبٌ ذات ذوائب.

كُلّما نَجَمتْ، ذهبتْ!.

يا ليت شِعْري: ما الذي أثارها، وما الذي أوجب شرارها.

وأخواتها ثوابتٌ لا تزولُ،

في طلوعٍ وأفولٌ.

ليلٌ عَسْعَسَ، فظهرت كواكبُه.،

وصباحٌ تَنَفَّسَ، فَضَحَهُ راكبُه.

جوارٌ خُنَّس في مجاريها، وظباءٌ كُنَّس لتحفظ ما فيها.

ليلٌ ونهار، أنجادٌ وأغوار، إبدارٌ وإسرار.

يا أهلَ الأفكار:

أقسم نجيُكم قسماً لا لغو فيه ولا ثنيا، إن الذي جاء بهذا كله لصادقٌ. يؤمن به - لا بل يعلمه - الظالمُ لنفسه، والمُقتصدُ، والسابق؛ شخصٌ من الجنس، أُيِّدَ بروح القدس.

قيل له: بَلِّغْ، فَبَلَّغ. وذَكَّرَ، فَأَبْلَغ

وقَذَفَ بالحقِّ على الباطل، فَدَمَغ!.

فزهقَ الباطلُ، وتحلَّى العاطلُ.

نشأةُ الآخرة، رَدُّه في الحافرة.

كيف يكون التَّجَسُّدُ.. مع التَّقَيُّدِ؟!

إنْ كان نفس الأمرِ انقلابُ عين، فقد جهل الكون.

وإنْ كان في النظر،فهو من مغالطِ البصر..

فإذا انبهم الأمرُ، وأُشكل، فما لك إلا أن تتوكَّل!.

فأسلمْ وجهك إلى الله وأنت محسن، تَكُنْ بمَنْ استمسكَ بالعُروة الوثقى، فإنه خيرٌ لك وأبقى.

وكُنْ مع الرعيل الذي خُطب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]..

تكن السعيد، الذي لا يشقى.

فإن نَزَلْتَ عن هذه الدرجة، فانزلْ إلى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]..

فإنهم، وإن كانوا سعداء، فإنه لا يستوي المؤمنون الميِّتون على فرشهم، والشهداء.

فلكل علمٍ رجال، ولكل مقامٍ حال.

ولكل بيتٍ أهل، ومع كل صعبٍ سهل.

وهذا القدرُ كافٍ في هذا الباب، لمن علم قطاب، وأُوتي الحكمةَ وفَصْلَ الخطاب.

انتهى الباب، بانتهاء المجلدة الخامسة والثلاثين من هذا الكتاب

والحمد لله، وصلَّى على محمدٍ رسوله. بخط مُنشيء هذا الكتاب.

فهرس المحتويات